الفصل الثالث

تـاريـــخ وهـــم

(فَذَهَبْتُ إِلَى الْمَلاَكِ قَائِلاً لَهُ: « أَعْطِنِي السِّفْرَ الصَّغِيرَ » فَقَالَ لِي: «خُذْهُ وَكُلْهُ فَسَيَجْعَلُ جَوْفَكَ مُرًّا وَلَكِنَّهُ فِي فَمِكَ يَكُونُ حُلْوًا كَالْعَسَلِ ») [سفر الرؤيا ١٠ : ٩]

يعرف مؤلف سفر الرؤيا فى تراث طويل وثيق باسم يوحنا بن زبدى المؤلف المفترض للإنجيل الرابع ، ولكنه فى تراث آخر هو تلميذ يسوع المحبوب. و« رُؤْيَا الرَّسول يُوحَنَّا اللاهوتى » واحدة من عناوين عدة تظهر على مختلف مخطوطات سفر الرؤيا القديمة. ومع أن مسألة من كتب سفر الرؤيا تعتبر من المسائل المثيرة للجدل الساخن منذ بدأ السفر فى التداول فى أقدم الأوساط المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية ، فإن بعض الباحثين العلمانيين لا يزالون يشيرون إلى مؤلف سفر الرؤيا باسم « القديس يوحنا » .

يمكننا أن نعرف عن مؤلف سفر الرؤيا أكثر مما نعرف عن معظم مؤلفى الكتاب المقدس الآخرين ، سواء اليهود منهم أو النصارى. فنحن نعلم أنه كان يعتبر نفسه مقربًا بصفة خاصة إلى الرب ، وفى الوقت نفسه ضحية اضطهاد قلة من إخوانه المسيحيين والعالم الوثنى الذى عاش فيه. ولعله كان يعتبر نفسه نبيًّا حرًّا يتجول من بلدة لأخرى فى آسيا الصغرى ، يبشر برؤاه الغريبة وعظاته الصارمة لكل من يجتمع له ويسمع ، وكان يعتمد على كرم ضيافتهم لسد جوعه والحصول على مكان يريح فيه رأسه مدة الليل. وكان يكنّ ضغينة مرة لاثنين من الوعاظ المنافسين ، كان يعتبرهما متهاونين فى معتقداتهما وممارساتهما المسيحية بدرجة غير مقبولة ، حتى أنه كان يتهمهما بالخطأ الروحى ، بل بالزندقة والفجور.

كما يمكننا أن نستشف معلومات أكثر تفصيلاً عن الرجل الذى دوَّن سفر الرؤيا. فربما ولد فى يهوذا ، ولعله كان من شهود عيان لحظات رهيبة فى التاريخ القديم ، أى

هزيمة الطائفة اليهودية التى كانت تعرف بـ« الغيورين » على يد جيش رومانى فى سنة ٧٠ ميلادية ، ودمار هيكل أورشليم [القدس] ، وشتات الشعب اليهودى. وربما كانت لغته الآرامية ، وهى لغة سامية حلت محل العبرية كلغة سائدة فى المنطقة التى عاش فيها اليهود قديمًا ، وهو لم يتقن اليونانية ، وهى اللغة الدولية فى العالم الوثنى الكلاسيكى. والأهم أنه كان يهودى المولد والتنشئة والتعليم ، وهى حقيقة تلقى بضوء يصعب تفسيره على نص آمن به أكثر المسيحيين غيرة على دينهم على مدار الألفى سنة الماضية.

هذه البيانات المفصلة عن حياة مؤلف سفر الرؤيا تعتبر بالنسبة لكثير من قرائه حرجة ومحرجة وخارج الموضوع تمامًا. فالأصول اليهودية للمؤلف ، وصلته بالنصوص والمواريث اليهودية التى تغزر فى نص الرؤيا ، تتناقض مع الدور الخطير الذى أصبح السفر يلعبه فى الأصولية المسيحية. ومن أغرب المفارقات أن كثرة من القراء على مر العصور نجحوا فى إقناع أنفسهم بأن مؤلف سفر الرؤيا كان روحًا ضالة أخفق فى فهم المغزى الحقيقى للرؤى التى كان يراها ويصفها بجلاء شديد.

بالنسبة للمؤلف نفسه ، مثلاً ، فإن « الوحش » الذى يرمز لاسمه بالرقم ٦٦٦ كان بصورة مؤكدة إمبراطورًا رومانيًّا حقيقيًّا عاش ومات فى القرن الأول من الميلاد ؛ إلا أن قراء سفر الرؤيا جيلاً بعد جيل يصرون على أنه كان بكل ببساطة خاطئًا. وإلا فكيف يمكن تفسير أن « الوحش » المشار إليه بالرقم الشفرى ٦٦٦ يرى رمزًا لشخصية ما أو أخرى فى سلسلة طويلة من الآثمين ، بدءًا من محمد(*) العصور الوسطى إلى ناپوليون فى القرن التاسع عشر وموسولينى فى القرن العشرين ، وعدد لا يحصى فيما بينهم؟

ومع ذلك فسفر الرؤيا ليس غامضًا كما يبدو. فالبحث الأكاديمى ـ قديمه وحديثه ـ يسمح لنا بإلقاء نظرة على الرجل الذى أنشأ هذا النص الغريب وعلى العالم الذى عاش فيه وعمل ، وعلى الأحاسيس التى اعتملت فى قلبه وعقله ، وعلى المعتقدات الحقيقية التى قصد أن يغرسها فى عقول قرائه وسامعيه الأُوَل. وفوق هذا وذاك يمكن اختراق النص اللغز واستنباط المعانى الرمزية المشفرة بعمق فى سفر الرؤيا.

(*) يقصد النبى محمدًا ﷺ.

ومع تقدمنا فى التاريخ، نرى أن سفر الرؤيا أعيدت قراءته وتأويله بطرق مفزعة بل صادمة على مر القرون، ولا سيما فى عصرنا. ولو كان مؤلف السفر وُهب رؤية دقيقة للمستقبل البعيد لأفزعته حقيقة أن نهاية العالم لم تكن وشيكة، ولكن أيضًا بما سيؤول إليه «سفره الصغير» فى أيدى البابوات والملوك وكبار المحققين والمصلحين الكنسيين وأدعياء المسيحانية والنبوة ـ أو مشاهير الروائيين كمؤلفى سلسلة «The Left Behind» واللاهوتيين التليفزيونيين من أمثال پات روبرتسن، وچيرى فالويل، ورئيس مثل رونالد ريجان(*).

ولقياس مدى انحراف سفر الرؤيا عن مقاصده ومعانيه الأصلية وللتعرف على الطريقة التى أعيد بها تأويل النص وأسىء تفسيره على مر القرون العشرين الماضية، فإننا بحاجة إلى محك: من الذى أنشأ سفر الرؤيا؟ ومن أين أتى وأين كان يتجول؟ وماذا كان يعرف، وبم كان يؤمن؟ وما الذى كان يرمى إليه بتدوينه الرؤى الغريبة التى تطالعنا فى «سفره الصغير» الذى خلف وراءه؟

من السمات المميزة لأية رؤيا ما يسميه الباحثون «التخلص» [أى اتخاذ المؤلف اسمًا مستعارًا ـ المترجم]. فمعظم النصوص الرؤيوية أنشأها كتّاب حقيقيون يخفون هواياتهم وراء أسماء شخصيات توراتية لها قداستها. وهكذا فإن «الكتابات الزائفة» تشمل أعمالاً تتراوح بين «رؤيا آدم» و«رؤيا مريم العذراء»، ولم يكتبها من نسبت إليهم. والحقيقة أن سفر الرؤيا حامت حوله منذ ظهر لأول مرة شكوك بعض القراء ممن تجاسروا على التساؤل عما إذا كان من إنشاء القديس يوحنا اللاهوتى فعلاً.

والتساؤل نفسه ينطبق بالطبع على كافة أسفار الكتاب المقدس بنسختيه اليهودية والمسيحية إلا قليلاً. فبعض قراء الكتاب المقدس، مثلاً، لا يزالون يصدمون حين يعلمون أن الباحثين الأكاديميين لم يعودوا يؤمنون بأن موسى هو الذى أنشأ «أسفار موسى الخمسة» كما هو شائع عن الأسفار الخمسة الأولى فى الكتاب المقدس العبرى بين اليهود، أو أن أيًّا من الأناجيل أنشأه «الرسل» الذين تظهر أسماؤهم فى عناوينها. بل إن

(*) وچورچ بوش.

مجمل الكتابات المقدسة اليهودية وكمًّا غير هين من الكتابات المقدسة المسيحية يمكن اعتبارها «كتابات زائفة»، بمعنى أنها ليست من وضع مؤلفيها المنسوبة إليهم فى عناوينها.

ولا تزال الطريقة التى دونت بها أسفار الكتاب المقدس ووضعت بها عناوينها موضع جدل واسع وتفكير عميق. ومن النظريات فى هذا الصدد، مثلاً، أن المؤلف من هؤلاء كان يتبعه كاتب مطيع يكتب ملاحظات، ثم ينمق ما قال سيده، أو أن المؤلف كان يجلس ويملى على الكاتب ما يكتب. وهذه بالضبط الطريقة التى يفترض أن سفر إرمياء أنشئ بها طبقًا لتفسير يطالعنا فى الكتاب المقدس العبرى نفسه: «فَدَعَا إِرْمِيَا بَارُوخَ بْنَ نِيرِيَّا فَكَتَبَ بَارُوخُ عَنْ فَمِ إِرْمِيَا كُلَّ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِى كَلَّمَهُ بِهِ فِى دَرْجِ السِّفْرِ»[1].

وهناك نظرية أخرى تذهب إلى أن كافة أسفار الكتاب المقدس العبرى ـ إلا قليلاً ـ تتألف من كتابات من مصادر عدة مختلفة، قام بجمعها وإنشائها كلها محرر أو «منشئ» واحد أو أكثر فى مرحلة ما من التاريخ. وكانت المادة الأولية قوامها خرافات وأساطير وحكايات شعبية وأشعار وأدعية وأناشيد ـ فيما يعرف بالتراث الشفاهى ـ ولكنها كانت تضم أيضًا أخبارًا وأنسابًا وتشريعات وسيرًا ذاتية وتراجم. لكن النص النهائى للكتاب المقدس من نتاج الناسخ الذى وفقها معًا ونمقها. ومن التنويعات على النظرية نفسها أن بعض هذه النسخ المنقحة أو كلها كانت من إنشاء أفراد عدة، بل أجيال عدة كانت جميعًا تعمل معًا فيما يسميه الباحثون «مدرسة» أو «حلقة» أو «منهجًا».

وهناك بالطبع قلة من الباحثين لا يزالون على اعتقادهم بأن بعض الكتابات التوراتية من تأليف إنسان واحد موهوب استعمل قلمه (أو ريشته إن شئنا الدقة) وأنشأ عملاً أدبيًّا خالدًا، كما فعل دانتى أو شكسبير أو مارك توين. فقصة حياة داود كما تطالعنا فى سفر صموئيل قد تكون من إنشاء كاتب عبقرى يعرف فى مجال البحث التوراتى بمؤرخ البلاط، أو هكذا يفترض، وكثير من أطرف القصص وأقواها فى سفر التكوين قد تكون من إنشاء مؤلف أقدر يعرف باسم «ى». وافترض البعض فى البداية أن «ى» امرأة، وأولهم ريتشارد إليوت فريدمان فى كتابه Who Wrote the Bible? (من أنشأ الكتاب المقدس؟) ثم تلاه هارولد بلوم وديفيد روزنبرج فى The Boob of J (كتاب ى).

كل هذه النظريات حول هوية مؤلفى الكتاب المقدس تنطبق على سفر الرؤيا وبنتائج شديدة الغرابة. فذهب بعض الباحثين، مثلاً، إلى أن سفر الرؤيا كما نعرفه فى الحقيقة من إنشاء «حلقة أو مدرسة أو جماعة يوحناوية ما»[٢]. ويرى آخرون أن سفر الرؤيا مكون من نصوص عدة مختلفة وغير متصلة دوَّن كلاً منها مؤلف مختلف فى زمان ومكان مختلفين ـ أو كتبته «مدارس» عدة ـ ثم نضدها معًا فى عصر لاحق محرر صالح بذل جهدًا لفرض نوع من النظام على فوضى الكلمات والصور.

لكن المثير أن معظم الباحثين المحدثين يجمعون على أن سفر الرؤيا من تأليف مؤلف واحد كان متصوفا وحالما، واعظًا كارزميًّا وشاعرًا لا يبارى. وسواء أقرئ سفر الرؤيا كنص مقدس أو كعمل أدبى فإن من أكبر منجزات البحث التوراتى ما يبذل من جهد لاستنباط سيرة حياة مؤلفه من النص نفسه، وما نما حوله من مناهج. وعندما نبدأ فى إدراك تفاصيل حياته وعمله ــ مهما كان ما يعتورها من غموض وحدس، فإننا سنتمكن من قراءة سفر الرؤيا بطرق جديدة.

يبدأ سفر الرؤيا، كسفر إرمياء، بادعاء مباشر بأنه تنزيل إلهى بعون من قلة من الوسطاء السماويين وكاتب بشرى. يتنزل النص من عند الرب إلى يسوع ثم منه إلى ملَك ثم إلى بشر يتم إبلاغ اسمه ليوحنا: «إِعْلاَنُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الَّذِى أَعْطَاهُ إِيَّاهُ اللهُ لِيُرِى عَبِيدَهُ مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَكونَ عَنْ قَرِيبٍ وَبَيَّنَهُ مُرْسِلاً بِيَدِ مَلاَكِهِ لِعَبْدِهِ يُوحَنَّا» حسب ما ورد بالسطور الأولى من النص[٣]. وبناء على هذا التأكيد يؤمن المتدينون من المسيحيين بأن سفر الرؤيا «الوحيد بين أسفار الكتاب المقدس الذى أنشأه يسوع»[٤].

وادعاء أنه وحى إلهى ليس بهذا الوضوح فى بقية النص نفسه. فالسفر مدون بضمير المتكلم، لكن أكثر من راوية يخاطبوننا فيه. والصوت الذى نسمعه فى بعض المواضع صوت المؤلف البشرى الذى يسمى نفسه يوحنا، وفى مواضع أخرى يقتصر دور يوحنا على النقل عن الشخصيات السماوية المتنوعة التى يواجهها ــ الرب ويسوع وسلسلة من الرسل الملائكيين ــ ومع ذلك يقدم يوحنا نفسه باعتبار أنه البشر الذى سُجلت رؤاه فى النص، ويحتسب له فى العادة أنه مؤلفه. ولكن يظل هناك سؤال معلق: هل الرسول الذى ورد اسمه فى العهد الجديد يوحنا، هو ابن زبدى؟

وفى تقديمه نفسه، يقول يوحنا للكنائس السبع بآسيا الصغرى التى كان سفر الرؤيا موجهًا إليها أصلاً قائلاً: «أَنَا يُوحَنَّا أَخُوكُمْ وَشَرِيكُكُمْ فِى الضِّيقَةِ وَفِى مَلَكُوتِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ»[٥]. إلا أن مسألة أن مؤلف سفر الرؤيا يسمى نفسه «يوحنا» لا تعنى أنه يوحنا نفسه المذكور فى الأناجيل. فالاسم العبرى «يوحانان» ومقابله اليونانى «يوانِس» كان متداولا قبل إنشاء الأناجيل أو سفر الرؤيا بزمن طويل. بل إن العهد الجديد نفسه يضم عديدًا ممن يسمون «يوحنا» ومنهم يوحنا الرسول، ويوحنا المعمدان وهو واعظ جوال من أوائل من زعموا أن يسوع هو المسيح.

بدأ التعارف على أن يوحنا الرسول هو منشئ سفر الرؤيا بظهوره أول مرة بين الطوائف المسيحية بالإمبراطورية الرومانية. يقول إيرينايوس (من حوالى ١٢٠ إلى حوالى ٢٠٠م) وكان أسقفًا مسيحيا ذا مكانة فيما يعرف حاليا بليون بجنوب فرنسا. إن سفر الرؤيا «لم يُعرف من مدة طويلة، فى جيلنا تقريبًا فى ختام حكم دوميتيان» أى فى تاريخ لا يبعد عن ٩٦ ميلادية[٦]. وإيرينايوس أول مفسر ينسب تأليف سفر الرؤيا لـ«يوحنا تلميذ الرب»، وهو اعتقاد أكد عليه آباء كنسيون أوائل آخرون عدة منهم جوستين الشهيد وأوريجن. لكن هناك أسقفًا أكثر حذرًا هو ديونيسيوس السكندرى (من حوالى ٢٠٠ إلى حوالى ٢٦٥م) يسلم جدلاً بأن سفر الرؤيا عمل «يقدره كثرة من المسيحيين الأتقياء»، ولكنه كان أول من ذهب إلى أن السفر والإنجيل الرابع «يستحيل أن يكونا من إنشاء شخص واحد»[٧].

كغيره مما لا يحصى من نقاد الكتاب المقدس، تنبه ديونيسيوس للتناقضات الواضحة والمزعجة بين الإنجيل الرابع وسفر الرؤيا بما فى ذلك الفروق الظاهرة فى الموقف اللاهوتى الجوهرى لكل منهما؛ فالإنجيل الرابع يؤمن بما يسميه اللاهوتيون بـ«الأخرويات الراهنة»، بينما لا يعرف سفر الرؤيا سوى الأخرويات «المستقبلية»[٨]. وطبقًا لما ورد بفقرات بعينها فى إنجيل يوحنا ــ على سبيل المثال ــ فالمسيحيون ليسوا بحاجة للانتظار إلى آخر الزمان ليحظوا بنعمة الحياة الأبدية؛ إذ أنهم نعموا بالخلاص فى الحياة الدنيا. يقول يسوع: «إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كلاَمِى وَيُؤْمِنُ بِالَّذِى أَرْسَلَنِى فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ»[٩]. وعلى النقيض يؤكد سفر الرؤيا على أن الخلاص لا بد من أن ينتظر

نهـاية العـالم ـ الضيقة والبعث ويوم الحساب ـ فى لحظة ما فى المستقبل «فِى أَيَّامِ صَوْتِ الْمَلاَكِ السَّابِعِ مَتَى أَزْمَعَ أَنْ يُبَوِّقَ يَتِمُّ أَيْضًا سِرُّ اللهِ»[١٠].

ولعل الأكثر استفزازًا للقراء الخبراء باليونانية القديمة الفوارق فى اللغة والأسلوب الأدبى بين إنجيل يوحنا وسفر الرؤيا. فحين يقارن الباحثون بين الكلمات والعبارات فى كل منهما بغرض حساب عدد المصطلحات اليونانية المستعملة فى النصين دون غيرهما من نصوص العهد الجديد، لا يجدون إلا ثمانى كلمات مشتركة[١١]. وهنا فارق محير آخر بين النصين يتمثل فى إتقان مؤلف كل منهما اليونانية المتداولة (أو «المحلية») التى دونت بها النصوص المقدسة المسيحية. فاليونانية المتداولة فى الإنجيل الرابع «صحيحة وعذبة» فى حين أن اليونانية المتداولة فى سفر الرؤيا «مغلوطة بل همجية» على حد تعبير آديلة ياربرو كولنز وهى إحدى الرواد فى دراسة سفر الرؤيا (وزوجة چون كولنز الزميل المتخصص فى الدراسات الرؤيوية)[١٢].

والحقيقة أن المؤلف لا يدعى أنه يوحنا الرسول بأى موضع فى سفر الرؤيا، ولا يشير إلى أية تجارب قد تضعه ضمن الرسل فى حياة يسوع. بل يبدو أنه لا يولى اهتمامًا ـ بل ربما كان غير واعٍ ـ بقصة حياة يسوع كما وردت تفصيلا فى الأناجيل. وفى أحد المواضع بسفر الرؤيا، يبدى إشارة عابرة للرسل الاثنى عشر بضمير الغائبين، مما يوحى بأنه لا يزعم أنه أحدهم. وحين يذكر الرسل على الإطلاق فلا يذكرهم إلا فى ثنائه على «أورشليم [القدس] الجديدة» التى ستهبط من السماء بعد نهاية العالم، فيقول: «وَسُورُ الْمَدِينَةِ كَانَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ أَسَاسًا وَعَلَيْهَا أَسْمَاءُ رُسُلِ الْحَمَلِ الاِثْنَى عَشَرَ»[١٣].

ومن اللاهوتيين المتدينين والباحثين العلمانيين من يقدمون بعض السيناريوهات الافتراضية لكيفية كتابة المؤلف نفسه كلاًّ من سفر الرؤيا والإنجيل الرابع. فربما كتب يوحنا الرسول ـ حسب فرضيتهم ـ سفر الرؤيا فى شبابه وفى طور الرعونة وحين كان وافدًا لتوه على الأقاليم المتحدثة باليونانية من الإمبراطورية الرومانية، ودوَّن الإنجيل فى سن أكبر وبعد اكتساب قدر من الحكمة، وبعد أن أتقن اليونانية بعد سنين طويلة من الممارسة. أو لعله أملى نص كل من السفرين على كاتب أو مترجم مختلف أمهر من الآخر ـ وإن صح ذلك فالإنجيل من نتاج الكاتب الأمهر بينما عانت الرؤيا ضعف الآخر.

وهناك تعليل آخر فحواه أن الرسول مات قبل إتمام أحد السفرين. فيوحنا حسب رواية قديمة استشهد فى سبيل إيمانه فى فترة ما قبل سنة ٧٠ ميلادية، وهى فترة سابقة على التواريخ التى يحددها الباحثون المعاصرون للإنجيل الرابع أو سفر الرؤيا. إذن فربما تم إتمام أحد السفرين أو كليهما بعد وفاة يوحنا على يد كاتبين مختلفين، كلّ بفهم مختلف للاهوته وبتفاوت فى مدى إتقان اليونانية. وهناك باحث معاصر من المتخصصين فى الكتاب المقدس يتخذ موقفًا أكثر جرأة، حيث يتصور أن نص سفر الرؤيا وقع فى يد كاتب يكتب باسم غيره وبعد وفاته، ولم يكن يتسم بالركاكة وحسب بل تعمد إفساد عمل يوحنا اللاهوتى «زنديق يتسم بقدر كبير من الغباء والجهل»[١٤].

قرأ ديونيسيوس نفسه كلا السفرين بعيون متدينة وثاقبة فى آن، واضطر إلى استنتاج أن سفر الرؤيا كتبه «يوحنا آخر»، أى شخص كان يدعى يوحنا ولكن ليس يوحنا اللاهوتى[١٥]. وهناك باحثون آخرون يشاركونه هذا الرأى. فيشير بارت إيرمن مثلاً إلى أن يوحنا الرسول يوصف فى الأناجيل بالأمية، وبالتالى يستحيل أن يكون كتب أيًّا من الأعمال الإنجيلية المنسوبة له[١٦]. ولا تزال مسألة هوية المؤلف موضع جدل بين الباحثين وعلماء اللاهوت. يقول أحد الباحثين: «ما من موضوع فى دراسات الكتاب المقدس أثار مثل هذا الجدل المطول، وما من نقاش انتهى بكل هذه البلبلة والإحباط واللاجدوى»[١٧].

والحقيقة أن قراء سفر الرؤيا على مر العصور لم يتمكنوا قط من مقاومة طرح أجرأ التساؤلات على الإطلاق، وهو: لو لم يكن مؤلفه القديس يوحنا اللاهوتى فمن ذلك اليوحنا الآخر الذى كتب سفر الرؤيا فعلاً؟

هناك مرشح قديم يثير الاهتمام بالنسبة لهوية مؤلف سفر الرؤيا، وهو قس غامض (أو «شيخ كنيسة») بالكنيسة المسيحية الأولى كان اسمه يوحنا أيضًا. ورد ذكره أول مرة فى سفر پاپياس أسقف القرن الثانى، وأقدم مفسر معروف لسفر الرؤيا. والكتابات الأصلية لپاپياس مفقودة، ولكن هناك مصادر قديمة أخرى عرفت أعماله واستشهدت بها ونقلت عنها. فوفقًا لفقرة وردت فى تاريخ الكنيسة الذى وضعه

يوسبيوس فى القرن الرابع مثلاً، كان پاپياس يتتبع شيوخ المسيحيين من معارفه ومنهم الشيخ يوحنا فى مسعى دائب لتعلم المزيد عن حياة يسوع من شهود عيان الأحداث التى ورد ذكرها فى الأناجيل.

يقول پاپياس فى عبارة جانبية مثيرة للاهتمام: «أنا لا أعتبر ما ورد بالكتب قيمًا بالنسبة لى قدر قيمة ما يأتى من صوت حى وباقٍ»[١٨].

كان پاپياس أسقف كنيسة هيراپوليس التى تقع بالقرب من لاودكيا إحدى مدن آسيا الصغرى التى ينسب مؤلف سفر الرؤيا إليها نفسه. ونظرًا لأن پاپياس كان منشغلاً بتفاسيره فى العقود الأولى من القرن الثانى فمن المتصور أن مصادره كانت تشمل شاهد عيان مسنًّا يعرف شخصية يسوع التاريخية أو أحد تلاميذه الأحياء على الأقل. من ثم فإن إشارة پاپياس العابرة للشيخ يوحنا كانت كافية للفت يوسبيوس المؤرخ القديم والموثوق للكنيسة المسيحية. تقول آديلة ياربرو كولنز: «يستنتج يوسبيوس أنه لو لم يكن يوحنا بن زبدى هو الذى رأى الرؤيا فربما رآها يوحنا الشيخ»[١٩].

هناك يوحنا مختلف تمامًا وأشهر تفترضه مؤلفًا لسفر الرؤيا الباحثة الكاثوليكية ج. ماسنجبيرد فورد كاتبة الترجمة المتميزة لسفر الرؤيا التى ظهرت فى سلسلة «Anchor Bible». ترى فورد أن المؤلف الأصلى لسفر الرؤيا ليس يوحنا الرسول ولا الشيخ يوحنا، بل رجلاً ثالثًا هو يوحنا المعمدان النبى اليهودى المتقد المذكور بالأناجيل وفى كتابات المؤرخ اليهودى القديم يوسيفوس. وطبقًا لرواية الأناجيل، فإن يوحنا المعمدان قُطعت رأسه قبل أن يُصلب، وهى حقيقة قد تعلل ضعف إلمام مؤلف سفر الرؤيا بقصة حياة يسوع الناصرى بالكتاب المقدس.

وترى فورد أن سفر الرؤيا يضم «إضافات» أدخلها على النص أتباع يوحنا المعمدان من اليهود «الذين ربما تحولوا إلى المسيحية أو لم يتحولوا». ولكنها تشير أيضًا إلى أنه بمقارنة الفقرات الرؤيوية فى العهد الجديد فإن «سفر الرؤيا يتبين أنه الوحيد الذى لا يؤدى فيه يسوع دور الشخصية المحورية»[٢٠]؛ لذا فهى تستنتج أن سفر الرؤيا فى جوهره «رؤيا يهودية فى المقام الأول» أعيد توجيهه فيما بعد للقارئ المسيحى، ثم

أدمج فى فترة لاحقة فى الشريعة المسيحية[٢١]. وفضلاً عن استبعاد أن يكون يسوع المسيح كاتب السفر، فإن نص الرؤيا قد لا يكون من تدوين مسيحى أصلاً.

الحقيقة أن مؤلف سفر الرؤيا يبدو أكثر تآلفًا مع الكتاب المقدس العبرى ـ وربما مع كتابات رؤيوية غامضة كسفر أخنوخ ـ منه مع النصوص المسيحية التى تم جمعها فى العهد الجديد[٢٢]. وهناك حوالى خمسمائة وثمانى عشرة إشارة إلى فقرات من الكتاب المقدس العبرى تطالعنا بسفر الرؤيا، فى حين أن الإشارات إلى «يسوع» أو «يسوع المسيح» لا تزيد عن أربع عشرة، يرد معظمها فى الأقسام التى تميزها باعتبارها «إضافات مسيحية»[٢٣]. حتى أوستن فارر، وهو أحد نقاد الكتاب المقدس الموهوبين والمرموقين بأواسط القرن العشرين، والذى يَفترض دينيًّا أن مؤلف سفر الرؤيا يوحنا اللاهوتى، يسلم جدلاً بأنه يتعامل مع المصادر اليهودية القديمة ويشير إليه بصفة «الحبر المسيحى»[٢٤].

ويلاحظ أن سفر الرؤيا يخلو إلى حد بعيد من المنطق المناوئ لليهود والذى يطالعنا فى بعض فقرات الأناجيل، كما يصف يوحنا نفسه وأتباعه، وبكل فخر، بأنهم يهود مخلصون. والأهم أن المؤلف يهتم بصورة واضحة بتيمات يهودية خالصة كالهيكل وتابوت العهد[٢٥]. وعلى النقيض من ذلك لا تجد فورد «أية إشارات واضحة لحياة يسوع الأرضية» ولا اهتمام على الإطلاق بشعائر وعقائد مسيحية أساسية كالمعمودية أو العشاء الربانى أو الثالوث[٢٦]. لهذه الأسباب فهى تبحث عن مؤلف سفر الرؤيا الأصلى بين يهود يهوذا فى القرن الأول ممن لم يعيشوا ليروا صلب يسوع أو مولد المسيحية. وترى أن المرشح الأنسب يوحنا المعمدان[٢٧].

يوصف يوحنا المعمدان فى العهد الجديد كنبى رؤيوى كيسوع. لكن المعمدان يقدم رؤية أشد كآبة لآخر الزمان من أى مما نسب ليسوع فى الأناجيل. تقول فورد: «رسالته تختلف جذريًّا عن رسالة يسوع. فرسالة يوحنا رسالة نقمة وشؤم لا رسالة خلاص»[٢٨]. ومنطق يوحنا المعمدان الشرس والمخيف هو الذى تتردد أصداؤه فى سفر الرؤيا لا تعاليم يسوع الأرق والألطف. فيرد بسفر متى أن يوحنا المعمدان قال:

«تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ... أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ وَلَكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ»[٢٩].

لم تفلح أى من النظريات قديمها وحديثها فى إقناع غالبية باحثى الكتاب المقدس المحدثين بأن الرجل الذى يسمى نفسه يوحنا فى سفر الرؤيا هو يوحنا اللاهوتى أو يوحنا المعمدان أو الشيخ يوحنا. تقول آديلة ياربرو كولنز: «الحكم السليم يفضى إلى استنتاج أنه كتبه رجل يدعى يوحنا غير معروف لنا»[٣٠]. إلا أن هوية مؤلف سفر الرؤيا ـ كما سنرى ـ لغز يمكن حله. وتفاصيل حياته تقدم مفتاحًا لحل شفرة المعانى الخفية التى ضمنها متن الرؤيا المتميز.

إن أية قراءة متأنية لسفر الرؤيا تكشف المزيد عما نعلم عن كتّاب معظم نصوص الكتاب المقدس الأخرى. ولنبدأ بحقيقة بسيطة مفادها أن يونانيته تشوبها «أخطاء جسيمة فى النحو والقواعد»، وهى حقيقة دفعت بعض الباحثين إلى استنتاج أن يوحنا كان يهوديًّا ولد فى يهوذا وشب يتحدث الآرامية واكتسب بغضًا دام عمره لجيش الاحتلال الرومانى الذى عاش فى ظله[٣١]. والدليل على هذه التفاصيل عن حياته والتى تساعد على تفسير بعض ألغاز سفر الرؤيا المحيرة تعتبر محيرة وكاشفة.

يبدو، مثلاً، أن يوحنا يتجنب استعمال القواعد التى تنفرد بها اليونانية، ويؤثر استعمال الصيغ التى لها ما يقابلها فى العبرية أو الآرامية[٣٢]. والصياغة الدقيقة لإشاراته إلى النصوص المقدسة اليهودية توحى بأنه ملم بالنص الأصلى العبرى للكتاب المقدس ـ أو ربما إحدى ترجماته الآرامية القديمة ـ لا الترجمة السبعينية، أى الترجمة اليونانية للكتاب المقدس التى تداولها اليهود فى الشتات ومؤلفو سائر أسفار العهد الجديد[٣٣]. ومثل هذه العادات اللغوية كانت ستميز شخصًا ولد فى يهوذا ونشأ بها ودرس النصوص المقدسة اليهودية بلغتها العبرية الأصلية أو ترجمة آرامية لها، ولم يهاجر إلى بلدات إقليمية تتحدث اليونانية إلا فى مرحلة لاحقة من حياته.

يقول أوستن فارر فى كتابه «A Rebirth of Images» الذى يعد أكبر أعماله عن سفر الرؤيا: «هو يكتب كمن قضى العديد من سنوات التأمل فى المعبد قبل تغيير ديانته. فإذا جمعنا الفترتين اليهودية والمسيحية من حياته يمكن افتراض أنه كان فى الخمسين من عمره حين سمعنا عنه أول مرة»[٣٤].

إذن فسفر الرؤيا يشى بمقت للإمبراطورية الرومانية من النوع الذى يمكن أن نتوقع ممن كان مسقط رأسه إقليم يهوذا الرومانى. إذ احتلت روما يهوذا طوال القرن الأول وخاضت حربًا طويلة ودامية لقمع حركة المقاومة اليهودية، وفى النهاية هدمت هيكل يهوه بأورشليم [القدس] فى سنة ٧٠م، ووضعت بذلك نهاية لطقوس اليهودية القديمة كما ورد وصفها فى الكتاب المقدس العبرى. وقتل اليهود فى تلك الحقبة يسميه چاك مايلز ناقد الكتاب المقدس «المذبحة الرومانية»[٣٥]. وربما شهد يوحنا تلك الأحداث بعينيه، وحين هرب من يهوذا إلى آسيا الصغرى كلاجئ حرب، حمل معه رغبة عارمة فى الثأر من روما.

ويرقى بعض أبشع الصور بسفر الرؤيا إلى مستوى الهجوم السافر على الإمبريالية الرومانية. فيستحضر يوحنا، مثلاً، الرؤيا الشهيرة الخاصة بـ«الزَّانِيَةِ الْعَظِيمَةِ ... الَّتِى زَنَى مَعَهَا مُلُوكُ الأَرْضِ» وهى امرأة «مُتَسَرْبِلَةً بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ وَمَعَهَا كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِى يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا»[٣٦]. يرى يوحنا الزانية العظيمة وهى تمتطى ظهر وحش قرمزى ذى سبعة رءوس، ويشرح له ملَك أن «السَّبْعَةُ الرُّءُوسُ هِى سَبْعَةُ جِبَالٍ عَلَيْهَا الْمَرْأَةُ جَالِسَةً»[٣٧]. وكما يمكن للقراء والمستمعين الأوائل أن يدركوا دون مزيد من الشرح، كانت روما تُعرف فى فنون العالم الوثنى الكلاسيكى وآدابه «بمدينة التلال السبعة»[٣٨]. وعندما فكوا شفرة سفر الرؤيا رأوا «الوحش» فى صورة الغازى الرومانى لأرضهم.

واليونانية الركيكة التى دون بها سفر الرؤيا ـ «لغة يوحنا لغة چيتو» فى رأى أحد الباحثين ـ قد تنم عن حقد يوحنا الشديد على الحضارة الهيلينية لروما القديمة أكثر مما تنم عن قصوره فى اللغة والتعلم[٣٩]. بل إن آديلة ياربرو كولنز ترى أن يوحنا كان

متمكنًا فى الكتابة باليونانية السليمة، ولكنه عمد إلى «إضفاء صبغة سامية» على عمله كنوع من «الاحتجاج على النمط الأسمى من الثقافة الهيلينية» و«مسألة كرامة ثقافية لساميّ يهودى»[٤٠]. ولإعانة القارئ المعاصر على فهم أهمية اختياره اللغة فهى تشبهها باستعمال «إنجليزية الزنوج» من باب الكرامة: «المسألة تشبه رفض بعض الزنوج الأمريكيين أن يتحدثوا بلغة قويمة»[٤١].

وفيما يلى المثال الأول، ولكنه ليس الأخير، على السبب فى أن مؤلف سفر الرؤيا يمكن اعتباره داعية يقاتل على جبهة حرب حضارات. فككل الكتّاب الرؤيويين منذ دانيال، يقف كاتب الرؤيا ضد إغراءات الحضارة الإغريقية ـ الرومانية التى مارسها فى عصره رعايا قوة عظمى كان يعتبرها «أُمُّ الزَّوَانِى وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ»[٤٢]. فكان يعتبر كل مسيحى أو يهودى تعاون مع السلطات الرومانية أو ذاق متعة فنون الرومان وآدابهم أو كسب رزقه من التجارة مع الرومان خائنًا للرب الواحد الحق. بل إن مجرد إمساك المرء قطعة عملة رومانية فى يده كان المقابل الأخلاقى للزندقة فى نظر يوحنا، وهو موقف ثابت يقربه من النشطاء والدعاة المخلصين فى كل جيل تلا بما فيه جيلنا.

غادر يوحنا بلاده التى مزقتها الحرب وسفك فيها الدم ـ أو هكذا يفترض ـ متوجهًا إلى الإقليم الرومانى المعروف بآسيا، وهى منطقة بآسيا الصغرى يدخل معظمها فيما يعرف حاليًّا بتركيا الحديثة. وبالنسبة لروما العاصمة الإمبراطورية، كانت آسيا مجرد منطقة نائية منعزلة يسكنها فلاحون أجلاف، إلا أن المدن التى زارها يوحنا كانت بلادًا عامرة تتطلع الطبقة العليا فيها لتحسين وضعها فى إطار الحضارة الرومانية. وكان يوحنا ـ كما سنرى ـ يضيق بنمط حياة الرومان قدر ضيقه بالنزعة الاستعمارية الرومانية أو الممارسات الدينية للوثنية الكلاسيكية.

يقول يوحنا نفسه للقارئ إنه كان «فِى الْجَزِيرَةِ الَّتِى تُدْعَى بَطْمُسَ» حين أوتى الرؤى الغريبة المخيفة التى وَصف فى سفر الرؤيا. وبطمُس واحدة من أرخبيل يونانى يعرف باسم «دوديكانيز» قوامه اثنتا عشرة جزيرة ببحر إيجه ويقع على طول ساحل آسيا الصغرى الجنوبى الغربى. وبطمُس جزيرة بركانية وعرة تملأها تلال يبلغ ارتفاعها

حوالى ألف قدم، ولا تزيد مساحتها عن أحد عشر ميلاً مربعًا. وهكذا ذهب ڤيكتورينوس صاحب أقدم شرح لا يزال سليمًا على سفر الرؤيا فى القرن الرابع إلى أن يوحنا حُكم عليه بعقوبة بالأشغال الشاقة بجزيرة پطمُس ـ «حكم عليه القيصر دوميتيان بالعمل فى المناجم» ـ وأُطلق سراحه عقب وفاة الإمبراطور الذى أرسله إلى هناك. وكغيره فى سفر الرؤيا، نمت بذرة الحدس بالتراكم عبر القرون: فيشير أوستن فارر الذى كتب فى أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى المكان الذى تحددت فيه إقامة يوحنا بوصفه «معسكر الاعتقال فى پطمُس»[٤٣].

ويوحنا نفسه غير واضح فيما يتعلق بسبب مجيئه إلى پطمس وكيفية وصوله إليها. وهناك ترجمات تذهب إلى أنه ذهب لپطمس «لنشر كلمة الرب وشهادة يسوع المسيح»، أى بهدف التبشير بالإنجيل لأى يهود أو وثنيين يرغبون فى الاستماع إليه. إلا أن هناك ترجمات أخرى تترجم الفقرة نفسها بمعنى أنه نُفى إلى پطمس «بسبب كلمة الرب وشهادة يسوع المسيح»، أى عقابًا له على دعوته التبشيرية، وهو المعنى الأرجح عند الباحثين المحدثين[٤٤]. بل إن «الترجمة الحية الجديدة» التى هى من نتاج الباحثين اللاهوتيين المحدثين لا تجد غضاضة فى إضافة عبارة تفسيرية لا وجود لها فى النص اليونانى الأصلى للعهد الجديد وهى: «نُفيتُ إِلَى جَزِيرَةِ پَطْمُسَ لِلتَّبشيرِ بِكَلِمَةِ الرَّبِّ وَمِنْ أَجْلِ الحَديثِ عَن يَسُوعَ»[٤٥].

وما من مصدر قديم سوى سفر الرؤيا نفسه يدل على أن الرومان كانوا يستغلون پطمس كمنفى، ولو أن السجناء السياسيين كانوا يُبعدون إلى جزر أخرى مجاورة بأرخبيل دوديكانيز. ثم تتساءل آديلة ياربرو كولنز أيضًا عما إذا كانت عقوبة النفى الحميدة يُحكم بها على أى مسيحى آنذاك، فتقول: «الغريب فى هذه الفرضية أن معظم المسيحيين الأوائل المحكوم عليهم كانوا يُعدمون ولا يتم ترحيلهم»[٤٦]. ومع ذلك فلا يزال من الصعب تصديق أن يوحنا ذهب إلى جزيرة پطمس لمجرد التبشير بكلمة الرب نظرًا لقلة عدد السكان فى جزيرة صغيرة ونائية كهذه. إذ كان يوحنا ينشد مكانًا واعدًا يبشر فيه برسالته عن نهاية العالم، وعثر عليه.

يوضح يوحنا أن عمله التبشيرى لم يكن يجرى بجزيرة پطمس الجرداء، بل فى المراكز التجارية النشطة بآسيا الصغرى. وتتكون الإصحاحات الأولى من سفر الرؤيا من سلسلة من الرسائل الموجهة من يوحنا إلى الكنائس المسيحية بسبع مدن بغرب آسيا الصغرى: أَفَسُسَ، وسِمِيرْنَا، وَبَرْغَامُسَ، وثِيَاتِيرَا، وسَارْدِسَ، وفِيلاَدَلْفِيَا، ولاَوُدِكِيَّةَ. هذه الرسائل أو «الكتُب» ـ كما كانت تسمى ـ أفضل دليل على أن يوحنا قضى بهذه المدن مدة تكفى لاكتساب معرفة وثيقة بسياسة كل منها وأعيانها. بل إن من مفاتيح فهم الغضب والبغض فى سفر الرؤيا العلاقة الشائكة بين يوحنا والمبشرين والدوائر الدينية والأعيان والسلطات الإقليمية، وكلهم كانوا أكثر رضا من يوحنا نفسه بالحياة الطيبة التى كان المواطنون ـ الوثنيون والمسيحيون واليهود على السواء ـ ينعمون بها فى الإمبراطورية الرومانية.

كانت أفسُس، مثلاً، مركزًا تجاريًّا يضج بالنشاط المدنى والطموح. والمدينة تقع عند مصب نهر كبير وعند مفترق ثلاثة طرق حيوية، وبالتالى كانت بمثابة محور لغرب آسيا الصغرى كله. وكانت أفسُس مدينة جعلتها روما منطقة «حرة»، وكان يحكمها مجلس من مواطنيها يعرف باسم «إكليسيا» ـ اللفظ اليونانى نفسه الذى يعنى «كنيسة» ـ ولم تعان مهانة احتلال الجيش الرومانى. ومع ذلك كانت واحدة مما كان يعرف ببلدات الجلسات القضائية، حيث كان الحاكم الرومانى يتوقف بشكل روتينى بها ليسمع القضايا القانونية المهمة ويفصل فيها، وهى حقيقة زادت من مكانتها بين بلدات ومدن أقاليم الإمبراطورية الرومانية المترامية. لهذه الأسباب كافة كانت أفسُس «مدينة تمثل نموذجًا للحياة اليونانية الرومانية فى أبهى صورها»[٤٧].

كانت أفسُس أيضًا تضم ما كان يعرف بالـ «أرتيميسيوم» وهو معبد مكرس لإلهة العفة والمخاض (والحيوانات والزهور والقنص) والتى كانت تعرف لدى الإغريق باسم «أرتميس» ولدى الرومان باسم «ديانا». أنشأ المعبد أول مرة الملك كرويسس الذى اشتهر بثرائه، ثم أعيد بناؤه عدة مرات على مر القرون. كان أرتيميسيوم فى حياة يوحنا يزخر بالمرمر والخشب النادر ويزدان بالذهب والجواهر، ويعرض به تمثال للإلهة من الأبنوس والمعادن النفيسة، وكان يعد أحد العجائب السبع فى العالم القديم.

كان التمثال بالنسبة لمؤمن حقيقى كيوحنا بمثابة وثن، وكان المشهد برمته مجرد مثال آخر على ما يدينه الكتاب المقدس باعتباره رجسًا. يقول أحد المفسرين بأواسط القرن العشرين ليذكرنا بنظرة المسيحيين الأوائل للفن الوثنى برمته: «نحن نرى فى ديانا أحب الإلهات. لكن التمثال كان رابضًا أسود اللون بشع المنظر به نهود عدة، فكان تمثالاً غريبًا وبغيضًا وفظًّا»[٤٨]. ولعله كان تمثال ديانا أو عملاً غريبًا آخر من أشكال النحت الوثنى وقعت عليها عينا يوحنا ويقصده حين يستحضر صورة «أم الزوانى» «الْمُتَسَرْبِلَةَ بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ وَمَعَهَا كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِى يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا»[٤٩].

وهناك عادة وثنية أقل أبهة ولكنها كانت أكثر استفزازًا بالنسبة لموحد متشدد كيوحنا. ففى القرن الأول، عرفت روما ديانة جديدة وردت إليها من الأقاليم الآسيوية، حيث شرع المواطنون الرومان الوطنيون فى تصور الإمبراطور الرومانى رمزًا لروح الإمبراطورية الرومانية (أو روحها الحارسة)؛ لذا فإنهم رأوا فى الدعاء له بالخير وسيلة للدعاء للإمبراطورية بالخير. وهنا أيضًا سنحت الفرصة لبلدة إقليمية لكى تعزز مكانتها؛ فصدور موافقة رسمية من روما بإنشاء معبد تكريمًا للإمبراطور يمكن تشبيهه بمنح «اتحاد كرة القدم» امتيازًا. وفى سنة ٢٦م مثلا، كانت ساردس واحدة من عشر مدن تتنافس على هذا الامتياز، وكان الفوز لسميرنا. والحقيقة أن أفسُس وبرغامُس وثياتيرا بالإضافة إلى ساردس وسميرنا كانت جميعها مراكز لما عرف بديانة الإمبراطور.

لم يكن تقديس الإمبراطور ـ كما سنرى بعد قليل ـ عملاً يدخل ضمن التجاوز الوثنى الذى روجت له الدعاية اليهودية والمسيحية؛ إذ لم يكن يُطلب من العابد سوى أن يصب بضع قطرات من النبيذ، ويلقى بحفنة بخور على الفحم بموقد وضع أمام تمثال يمثل الروح الإمبراطورية. إلا أن يوحنا اعتبر هذه العادة المستحدثة أبشع من عبادة الآلهة والإلهات القدماء. وحين يستحضر يوحنا مقر الشيطان فى كتابه لكنيسة برغامُس ـ «حَيْثُ كُرْسِى الشَّيْطَانِ» ـ فربما كان يقصد المعبد الذى أقيم بها فى سنة ٢٩ ق. م تكريمًا «لأغسطس الإلهى والإلهة روما»[٥٠]. فهو كرجل تربى وتعلم على اليهودية كان

سيجد أثرًا لعبادة بشر تكفى لتذكيره بإمبراطور آخر كان يطلب من رعاياه أن يعبدوه ـ أنتيوخوس المجنون ـ واستثارة غضبه على الإمبراطور الرومانى الجالس فى عصره.

لم يكن الطموح السياسى، والثقافى، والنجاح التجارى فى المدن السبع التى زارها يوحنا يفوق طقوس العبادة الوثنية فيها. فكانت سميرنا، مثلاً، ميناء بحريًّا مهمًّا ومركزًا لتجارة النبيذ، وكان تجارها الأثرياء ينفقون على مكتبة وإستاد رياضى وأكبر مسرح عام فى آسيا الصغرى. وكانت برغامُس أيضًا تباهى بمكتبتها، واسم المدينة هو أصل كلمة «برشَمان» وهو نوع من الورق يفترض أنه اختُرع فيها. وكانت أفسُس تستضيف ألعاب المصارعة التى كانت تمثل شكلاً دمويًّا من التسلية الشعبية. وكانت ثياتيرا مقر عدد كبير من الطوائف التى برزت فى عالم التجارة فى العالم القديم، أى الحرفيون والصناع والتجار ممن كانوا يصنعون المنتجات الجميلة والمفيدة التى كان الرومان يعتبرونها ممتعة أو عملية أو كلتيهما معًا.

لا شىء فى صورة المدن السبع يوحى بأنها كانت «مقار للشيطان» إلا على صفحات سفر الرؤيا. بل تبدو كأماكن ينعم فيها الأهالى ـ من مسيحيين ويهود ووثنيين على السواء ـ بحياة مترفة آمنة وطيبة. لكن الصورة تتشوه لدى من ينظر إليها بعيون الإيمان الحق. فالتنازلات الشائنة التى يبديها المرء لكى ينعم بحياة طيبة فى مدينة عالمية لم تكن أقل خطيئة من تقديس الإمبراطور الرومانى أو الدعاء لديانا متعددة النهود بالنسبة لمؤلف سفر الرؤيا. فالسعى لتأمين حياة كريمة يعد من سبل الشيطان فى نظره ونظر الأصوليين الدينيين فى كل عصر، من المكابيين فى أواخر الحقبة التوراتية إلى المتشددين الناكرين لذواتهم من اليهود والمسيحيين والمسلمين فى العالم الحديث.

إن ما يكدر يوحنا فى الحقيقة أن المدن السبع أتاحت العديد من الفرص للمسيحيين حتى يعتنقوا أنماط الحياة الرومانية وكافأتهم بسخاء على ذلك. ولا شىء أكثر حقارة فى نظره من عملية الشراء والبيع البسيطة. فمن بين كافة التجاوزات الشيطانية التى يدينها يوحنا بكل غضب واشمئزاز، يبدو أنه يعتبر التجارة خطيئة كبرى.

ولعل أفضل دليل على ذلك ما نجد فى العقوبات التى تتراءى ليوحنا لأعداء الرب

فى نهاية الزمان. فيبدأ يوحنا بتعريف قرائه وسامعيه بـ«الوحش» الذى يرمز لروما بوصفها عميل الشيطان على الأرض. ويؤكد أن من «يَسْجُدُ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ» سيتم تمييزه بـ «سِمَةٍ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ»، وهو رمز يمكن تفسيره كإشارة للأداة الأساسية للتجارة وهى عملة البلاد. ثم يحذر من أن العذاب الأكبر ينتظر كل من تميز بهذه السمة[٥١].

يقول ملَك يأتى ليوحنا فى رؤياه: «سَيَشْرَبُ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ اللهِ الْمَصْبُوبِ صِرْفًا فِي كَأْسِ غَضَبِهِ وَيُعَذَّبُ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ أَمَامَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ وَأَمَامَ الْحَمَلِ، وَيَصْعَدُ دُخَانُ عَذَابِهِمْ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ وَلاَ تَكُونُ رَاحَةٌ نَهَارًا وَلَيْلاً لِلَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ يَقْبَلُ سِمَةَ اسْمِهِ»[٥٢].

بل إن أول الخاطئين الذين ينزل بهم العذاب فى آخر الزمان هم من يحملون سمة الوحش. سبعة من الملائكة سيصبون سبع قوارير تحوى «غَضَبَ الرَّبِّ»، والقارورة الأولى التى يصبها أول الملائكة ستسبب «دَمَامِلَ خَبِيثَةً وَرَدِيَّةً» تصيب من «بِهِمْ سِمَةُ الْوَحْشِ وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِصُورَتِهِ»[٥٣]. وفى ختام المحنة الطويلة الوارد وصفها بهذا التفصيل المريع بسفر الرؤيا يُلقَى كل من به سمة الوحش «حَيًّا إِلَى بُحَيْرَةِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ بِالْكِبْرِيتِ»[٥٤].

ومن الواضح أن سمة الوحش اسم، ربما اسم أحد أباطرة الرومان، أو لعله المقابل العددى لأحرف اسمه. وفى موضع آخر من السفر يختذل يوحنا اسم الوحش فى الرقم ٦٦٦، وهو نوع من الشفرات الألفبائية العددية لا وجود له إلا فى اللغات التى تؤدى أحرفها وظيفة الأعداد أيضًا (منها العبرية واليونانية). وهو أيضًا ما يقوم دليلاً على أصوله اليهودية؛ فاستخلاص المعانى الصوفية من النص التوراتى من خلال الحساب والتلاعب بالقيم العددية للأحرف فيما يعرف بـ«حساب الجُمَّل» كان أثيرًا لدى متصوفة اليهود. ويمدنا يوحنا بدليل مهم وكاشف لما يعتمل فى خاطره عن الوظيفة الدنيوية لـ«سمة الوحش»:

يقول يوحنا مفسرًا: «وَيَجْعَلَ الْجَمِيعَ: الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ وَالأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ

وَالأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ تُصْنَعُ لَهُمْ سِمَةٌ عَلَى يَدِهِم الْيُمْنَى أَوْ عَلَى جِبْهَتِهِمْ، وَأَنْ لاَ يَقْدِرَ أَحَدٌ أَنْ يَشْتَرِى أَوْ يَبِيعَ إِلا مَنْ لَهُ السِّمَةُ أَو اسْمُ الْوَحْشِ أَوْ عَدَدُ اسْمِهِ»[٥٥].

كان الشراء والبيع ـ كما رأينا ـ من أكبر مشاغل المدن السبع التى عمل فيها يوحنا بالتبشير، فهى مصدر الثروة وما يمكن للثروة أن تأتى به من ملذات. والثروة تقاس بالمال بطبيعة الحال؛ والمال المتداول فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية كان موسومًا باسم وصورة الإمبراطور الرومانى الذى تُضرب فى عهده. وبعض المسكوكات كانت تعرِّف الملك صراحةً باللفظ اللاتينى «divus» أو باللفظ اليونانى «theos» وكلاهما بمعنى «إله»[٥٦]. ويلاحظ أن اللفظ اليونانى الذى يرد بسفر الرؤيا ويترجم بمعنى «وسم» هو أيضًا «مصطلح فنى يطلق على الطابع الإمبراطورى الذى تدمغ به الوثائق التجارية، وعلى الختم الملكى الذى يضرب على المسكوكات الرومانية»[٥٧]. وعندما تمر عملة بكف مسيحى يقول يوحنا إن الوحش وسمه.

وقليلاً ما يرضى يوحنا باستعمال لفظ أو عبارة تعبر عن شىء واحد، ووسم الوحش تعبير يزخر بمعان أعمق. فاللفظ اليونانى بمعنى «وسم»، مثلاً، يستعمل أيضًا للإشارة إلى الوسم الذى يدمغ على جلد الماشية لتحديد مالكها. وهناك قلة من المصادر القديمة تشير إلى أن العبيد والجنود كانوا يوسمون بصورة مماثلة (يوشمون) كرادع من الفرار أو ترك الخدمة. ويؤكد أحد المصادر على أن البغايا أيضًا كنَّ يوسمن بوسم مالكهن أو من يستخدمهن. ويشير ثالث أسفار المكابيين إلى أن أحد فراعنة مصر فى العصر الهيلينى أمر بوسم بعض رعاياه من اليهود بصورة ورقة لبلاب، وهى شارة الإله ديونيسيوس[٥٨].

وهناك عادة قديمة أخرى قد تفسر إشارة يوحنا الغريبة وهى الوسم الذى كان يدمغ على جبهة أو رقبة أو يد من قُبلت عضويته فى رابطة مهنية أو عمالية، أو تم تكريسه فى ديانة أحد الآلهة الوثنيين. وبما أن الروابط المهنية كانت تلتمس حماية أحد الآلهة أو إحدى الإلهات، فربما كانت العضوية فى إحدى الروابط والتكريس فى إحدى الديانات شيئًا واحدًا. ووسم أعضاء الرابطة والديانة يفسر كمحاكاة واعية لدمغ

العبيد؛ فيقر المكرَّس بعبوديته للإله «بحزوز لا تكتب على قطع من رق البرشمان، بل تدمغ على جسده بحديد محمى كالعادة المتبعة مع العبيد» على حد تعبير فيلو الفيلسوف اليهودى بالقرن الأول[٥٩].

ومع ذلك فالمعنى الأصلى لعبارة «وسم الوحش» قد تكون إشارة إلى أسماء أو أعداد أو رموز كانت تظهر على المسكوكات الرومانية. والمسكوكات عند يوحنا أسمى رموز السلطة الرومانية المحفورة بالذهب والفضة، ورمز أيضًا للكماليات ووسائل الرفاهية التى يبتاعها بعض المسيحيين على حساب روحهم حين يبدون تنازلات يدينها بشدة. والعملة المضروبة بالذهب أو الفضة وعليها صورة الإمبراطور تعد بالنسبة لمحارب حضارى كيوحنا نموذجًا لما يدينه إله إسرائيل فى الوصايا العشر. بل إن خوف يوحنا ونفوره من المسكوكات الرومانية يقوم دليلاً آخر على هويته اليهودية، وتعد فى الوقت نفسه نموذجًا آخر للقيم اليهودية التى يزخر بها سفر الرؤيا.

واعتبار إمساك عملة رومانية عملاً وثنيًّا مسألة لا تتأتى إلا من يهودى متدين من يهوذا. ففى هيكل يهوه بأورشليم [القدس]، مثلاً، لم يكن من يحجون إلى الهيكل من بلاد بعيدة يأتون معهم بالحيوانات التى يتقربون بها على مذبح الرب، بل كانوا يبتاعون ما يحتاجون إليه من ماشية وأغنام لدى وصولهم إلى أورشليم [القدس]. وخوفًا من أن يلوث الحجاج الهيكل بتداولهم عملات تحمل اسم إمبراطور وثنى أو إله وثنى أو صورته، كان الصرافون القائمون بتغيير العملات يتواجدون بالقرب من الهيكل لتبديل العملات الوثنية بعملات كان ممنوعًا ظهور أسماء أو صور عليها.

والصيارفة وباعة حيوانات القرابين ممن يمارسون عملهم عند الهيكل بأورشليم [القدس] يرد ذكرهم فى الأناجيل بالطبع، ولكن فى حكاية تحرف سبب وجودهم بالمكان أصلاً. تقول الحكاية بإنجيل مرقس: «وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ الْهَيْكَلَ ابْتَدَأَ يُخْرِجُ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِى الْهَيْكَلِ وَقَلَّبَ مَوَائِدَ الصَّيَارِفَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ الْحَمَامِ»[٦٠]. فيدين يسوع الصيارفة وباعة الحيوانات القربانية؛ لأنهم أحالوا الهيكل «مغارة لصوص»، لكنهم فى الحقيقة كانوا يؤدون خدمة كانت تمنع تدنيس الهيكل بالاتجار بمسكوكات عليها «وسم الوحش»[٦١].

وقصة الإنجيل لا ذكر لها على الإطلاق فى سفر الرؤيا الذى كان مؤلفه يتفهم الوظيفة الدينية للصيارفة حتمًا. فالعملة الوحيدة التى يجب على المتدين الحق أن يرفض تداولها عنده هى النوع الذى يحمل أسماء وصور الإمبراطور الرومانى ورعاته وراعياته الإلهيات، أى المسكوكات المنقوش عليها وسم الوحش. إلا أن ازدراء يوحنا المال واحتقاره التجارة وجها عملة واحدة إن صح التعبير. فهو حين يصف الدمار النهائى لـ«بابل» ـ اسم شفرى لروما الاستعمارية لا فى سفر الرؤيا وحده بل أيضًا فى كتابات رؤيوية قديمة أخرى كتنبؤات العرافين ورؤيا باروخ ـ يوجه يوحنا قدرًا من أكثر أساليبه النثرية تنميقًا وسخريته المريرة لمن يرتزقون من شراء الكماليات وبيعها.

يقول يوحنا عن رؤياه عن دمار روما النهائى: «وَيَبْكِي تُجَّارُ الأَرْضِ وَيَنُوحُونَ عَلَيْهَا لأَنَّ بَضَائِعَهُمْ لاَ يَشْتَرِيهَا أَحَدٌ فيما بَعْدُ»[٦٢]. ويواصل ليقدم قائمة بسلعهم بتفصيل مترف يشى بقدر من الحسد إضافة إلى الازدراء: «بَضَائِعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْبَزِّ وَالأُرْجُوانِ وَالْحَرِيرِ وَالْقِرْمِزِ وَكُلَّ عُودٍ ثِينِي وَكُلَّ إِنَاءٍ مِنَ الْعَاجِ وَكُلَّ إِنَاءٍ مِنْ أَثْمَنِ الْخَشَبِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالْمَرْمَرِ، وَقِرْفَةً وَبَخُورًا وَطِيبًا وَلُبَانًا وَخَمْرًا وَزَيْتًا وَسَمِيذًا وَحِنْطَةً وَبَهَائِمَ وَغَنَمًا وَخَيْلاً وَمَرْكَبَاتٍ وَأَجْسَادًا وَنُفُوسَ النَّاسِ»[٦٣].

وفى موضع آخر من سفر الرؤيا، يتخيل يوحنا أن الخاطئين سيلقون فى بحيرة من نار إلى الأبد، بحيرة «مُتَّقِدَةٍ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ»[٦٤]. إلا أنه يقنع هنا برؤى عن تجار وربابنة لا يعانون إلا انكسار الخواطر لضياع تجارة مزدهرة فى سلع فاخرة وهم يشهدون دمار بابل.

يقول يوحنا: «تُجَّارُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّذِينَ اسْتَغْنُوا مِنْهَا سَيَقِفُونَ مِنْ بَعِيدٍ مِنْ أَجْلِ خَوْفِ عَذَابِهَا يَبْكُونَ وَيَنُوحُونَ ... وَكُلُّ الْجَمَاعَةِ فِي السُّفُنِ وَالْمَلاَّحُونَ وَجَمِيعُ عُمَّالِ الْبَحْرِ وَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ، وَصَرَخُوا إِذ نَظَرُوا دُخَانَ حَرِيقِهَا قَائِلِينَ: أَيَّةُ مَدِينَةٍ مِثْلُ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ؟ وَأَلْقُوا تُرَابًا عَلَى رُءُوسِهِمْ وَصَرَخُوا بَاكِينَ وَنَائِحِينَ قَائِلِينَ: «وَيْلٌ وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي فِيهَا اسْتَغْنَى جَمِيعُ الَّذِينَ لَهُمْ سُفُنٌ فِي الْبَحْرِ مِنْ نَفَائِسِهَا لأَنَّهَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَرِبَتْ ... وَكُلُّ صَانِعٍ صِنَاعَةً لَنْ يُوجَدَ فِيكِ فِي مَا بَعْدُ وَصَوْتُ رَحًى لَنْ يُسْمَعَ فِيكِ فِي مَا بَعْدُ»[٦٥].

وإذا كان يوحنا يسعى لتخويف قرائه وسامعيه حتى يتجنبوا أصدقاءهم وجيرانهم وأقرباءهم الوثنيين، فإن إضفاء السمات الشيطانية على عملات الرومان ـ واستهجان «البضائع» التى يمكن أن تشتريها ـ كان أداة نفسية بارعة. إذ يحق للمتدينين المسيحيين أن يهنئوا أنفسهم لفقرهم سواء أكان طوعيًّا أم غير طوعى، بتذكير أنفسهم بأن المشاركة فى التجارة الوثنية لا يقل عن التعامل مع الشيطان. ويحثهم سفر الرؤيا على التسلى بالحلم بيوم يعذب الرب فيه المهادنين ممن تعاملوا بعملات الشيطان. والثأر ـ كما سنرى ـ من القيم الأساسية بسفر الرؤيا.

إن استهجان يوحنا للعملة والتجارة يتفق أيضًا مع ما قد نستشف عن نمط حياته. فليس هناك فى سفر الرؤيا ما ينص على أو يوحى بأن يوحنا نفسه يمارس التجارة أو يشارك فى الشراء والبيع، أو حتى يشغل منصبًا كهنوتيًّا فى أى من الكنائس السبع التى يخاطب. بل يبدو أنه يتبع خطى إرمياء ويوحنا المعمدان؛ فهو نبى صرف، لا يحمل رسم كهانة ولا لقبًا رسميًّا. ولا يبدو أن له دارًا بأى من المدن السبع. ويبدو أن يوحنا كان يتجول من بلدة إلى أخرى معتمدًا على من يلتقى بهم فيهبونه طعامًا يقيم أوده ومأوى يستلقى به. وبذلك فإنه عاش وسلك فى حياته فى محاكاة واعية ليسوع وتلاميذه كما ورد وصفهم بإنجيل متى.

يقول يسوع لتلاميذه الاثنى عشر: «لاَ تَقْتَنُوا ذَهَبًا وَلاَ فِضَّةً وَلاَ نُحَاسًا فِى مَنَاطِقِكُمْ، وَلاَ مِزْوَدًا لِلطَّرِيقِ وَلاَ ثَوْبَيْنِ وَلاَ أَحْذِيَةً وَلاَ عَصًا لأَنَّ الْفَاعِلَ مُسْتَحِقٌّ طَعَامَهُ. وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ دَخَلْتُمُوهَا فَافْحَصُوا مَنْ فِيهَا مُسْتَحِقٌّ وَأَقِيمُوا هُنَاكَ حَتَّى تَخْرُجُوا»[٦٦].

كانت حياة يوحنا كمبشر متجول إعلانًا عن أفكار يعتنقها بكل حماس على صفحات سفر الرؤيا: «تقنين لقيم النسك والتشرد وانعدام الروابط الأسرية ورفض الثراء والأملاك» حسب قول أحد الباحثين[٦٧].

وهذه هى القيم نفسها التى ترد فى القواعد الصارمة التى تحكم أعضاء الطائفة الرؤيوية كتلك التى كانت بقمران بجوار البحر الميت، وفى بيانات النبى الرؤيوى الذى

يسمى يسوع: «لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ»[٦٨].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن يوحنا ترك حياة ثراء وترف ليؤدى رسالته كنبى. وهو رأى نظرى إلى حد كبير ولكنه لافت. فبما أن النفى كان عقوبة خاصة بالأرستقراط فى القانون الرومانى، فإن يوحنا نفسه فى تصورهم لا بد أنه كان عضوًا فى طبقة الكهان اليهود، ورجلاً ذا منزلة رفيعة بين اليهود. وهناك مصدر قديم هو أسقف من أفسُس يدعى بوليكراتس عاش بأواخر القرن الثانى، يقول إن يوحنا كان كاهنًا مرسمًا ولم يكن مبشرًا متطوعًا. وبناء على شواهد متهافتة كهذه يذهب أحد الباحثين إلى أن يوحنا نفى إلى پطمُس مباشرةً من حياة مترفة كان يحياها بأورشليم [القدس] والإسكندرية، بل ربما فى روما الاستعمارية أيضًا[٦٩]. إلا أن نص الرؤيا يوحى بأن يوحنا كيسوع نفسه كان رجلاً من أصول متواضعة لم يطمح قط لمنزلة أو ثراء، بل إنه كان يتجنب من يفعلون ذلك.

ومبشر جوال كيوحنا كان سيصبح شخصية معروفة لدى الطوائف المسيحية بالمدن السبع. وهناك كتيب مسيحى للتعاليم الدينية من الحقبة نفسها تقريبًا يعرف بـ«الديداخ» ــ ويضم فقرات رؤيوية خاصة به ــ يدعو كافة المسيحيين الأتقياء لـ«اقتسام أبكار محاصيلهم ومالهم وثيابهم مع أى نبى حق يرغب فى الإقامة بين ظهرانيهم»[٧٠]. ويؤكد الديداخ أن الأنبياء ــ أو الصادقين منهم على الأقل الذين يتكلمون «بالروح» ــ يستحقون أن يؤخذوا على محمل الجد[٧١]. وبعد إعلان التراث الحبرى اليهودى انتهاء عصر النبوة بمدة طويلة، كانت الكنائس المسيحية بالإمبراطورية الرومانية لا تزال مستعدة للترحيب بأى رجل (أو امرأة) يزعم ويُثبت أنه «نبى حق».

والحقيقة أن يوحنا اضطر لمواجهة أكثر من منافس من بين أدعياء النبوة بآسيا الصغرى ومنهم رجل وامرأة اعتبر منافستهما خطيرة لدرجة أنها أوحت ببعض من أسوأ المنازلات اللفظية فى سفر يزخر بالغضب. ولا نعلم اسميهما الحقيقيين، إلا أنه يطلق عليهما «إيزابل» و«بلعام» مستعيرًا اسمى زوج من الأشرار بالكتاب المقدس العبرى. ويدين كلاً من منافسيه بأخطر تهمة أمكنه أن يرميهما بها، أى خطيئة ادعاء النبوة.

إن استحواذ فكرة ادعاء النبوة على يوحنا تدفع بواحدة من المشكلات التى يزخر بها سفر الرؤيا سواء فى عصره أو فى عصرنا الراهن. ففى العصر الذى ظهر فيه يوحنا بآسيا الصغرى، كان التراث اليهودى يتشكك بالفعل فى أدعياء الكهانة والمسيحانية. وما لبثت الكنيسة الوليدة أيضًا أن بادرت بالشك فى أناس كيوحنا أصروا على أنهم رسل من عند الرب. بل إن دلائل يوحنا النبوية كانت موضع شك قبل إقرار سفر الرؤيا ضمن الكتابات المقدسة المسيحية. وكما سبق أن رأينا فى حياتنا فإن قراء سفر الرؤيا ممن يعتبرون أنفسهم أنبياء يمكن أن يشكلوا خطرًا بل خطرًا مميتًا. ومع ذلك ومن الغريب أن الخوف من أدعياء النبوة موثق بصورة مفصلة فى سفر الرؤيا نفسه.

تشمل الكتب المرسلة للكنائس السبع والتى يفتتح بها سفر الرؤيا تحذيرًا عامًّا من أدعياء النبوة ـ«الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ رُسُلٌ وَلَيْسُوا رُسُلاً»ـ وسلسلة من الرسائل لمختلف الكنائس عن أناس بعينهم يتهمهم يوحنا بالخطيئة نفسها[٧٢]. وهكذا ينقل يوحنا بركة «ابن الرب» لكنيسة أفسُس؛ لأنها تعرفت على الزنادقة الذين يسميهم «النُّقُولاَوِيِّينَ» ونبذتهم: «أَنَّكَ تُبْغِضُ أَعْمَالَ النُّقُولاَوِيِّينَ الَّتِى أُبْغِضُهَا أَنَا أَيْضًا»[٧٣]. ولكنه يدين أعضاء كنيسة برغامُس لتهاونهم مع مدعى النبوة الذى يسميه «بلعام». كما يدين كنيسة ثياتيرا لاحتضانها نبية الفتنة التى يسميها «إيزابل».

يقول يوحنا لكنيسة ثياتيرا ناقلاً رسالة من «ابن الرب»: «أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ وَمَحَبَّتَكَ وَخِدْمَتَكَ وَإِيمَانَكَ وَصَبْرَكَ وَأَنَّ أَعْمَالَكَ الأَخِيرَةَ أَكْثَرُ مِنَ الأُولَى، لَكِنْ عِنْدِى عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّكَ تُسَيِّبُ الْمَرْأَةَ إِيزَابَلَ الَّتِى تَقُولُ إِنَّهَا نَبِيَّةٌ حَتَّى تُعَلِّمَ وَتُغْوِى عَبِيدِى أَنْ يَزْنُوا»[٧٤].

وكما فى مواضع أخرى من سفر الرؤيا، يستلهم يوحنا كتابات اليهود المقدسة فى شجبه خصومه. فبلعام مثير فتن وثنى موفد من قبل ملك مؤاب لصب اللعنة على بنى إسرائيل الغزاة حسب ما ورد بقصة شيقة وردت بسفر العدد، وينتهى به الأمر بتوبيخه على غبائه من قبل حماره. إذ يرى المخلوق المتواضع ملاكًا من عند الرب يعترض طريقهما بسيف مشهر، إلا أن بلعام الجهول لا يرتدع[٧٥].

وإيزابل ـ الزوجة الزنديقة لملك بنى إسرائيل الذى يدعى آخاب ـ تغوى زوجها بعبادة الآلهة والإلهات الوثنيين وتخطط لقتل أنبياء يهوه، ويدينها سفر الملوك الثانى لفجورها وممارسة السحر[٧٦]. ومرة أخرى يفترض يوحنا أن سامعيه وقراءه سيدركون ويتفهمون هذه العلاقات، وهى حقيقة توحى بأنهم كانوا من بنى ملته من اليهود ممن آمنوا لتوهم بأن يسوع هو المسيح.

قد يكون هناك قدر من الغيرة المهنية فى هذا المقام. فيوحنا كان سيضطر على أية حال للتنافس مع غيره من الأنبياء الجوالين سعيًا للفت الطوائف المسيحية واستدرار سخائها حيث كانوا جميعًا يسعون وراء الأتباع والأسخياء. ولكن يبدو أنه كان لديه اعتراض من حيث المبدأ على منافسيه، فمن الواضح أنهم يشجعون المسيحيين على مسايرة السلطات الوثنية بالمدن التى كانوا يقيمون بها ويمارسون عملهم. وهنا نجد الجبهة التى يخوض فيها يوحنا الحرب الحضارية على صفحات سفر الرؤيا. فالمسيحى الذى يهادن هو المسيحى الذى يخطئ فى نظر رجل كيوحنا.

ولفهم المهادنة التى يرضى المسيحى فى برغامُس أو ثياتيرا أن يبديها، فنحن بحاجة لتذكر ما كان متوقعًا من أى متحول إلى المسيحية أن يفعل وما ينبغى عليه أن يتجنب. ففى لحظة حاسمة من تاريخ المسيحية الأول، قرر المسيحيون الأوائل التخلى عن الشريعة اليهودية برمتها، بما فى ذلك طقس الختان وشرائع الكشروت الغذائية وطقس السبت الصارم، فكلها كانت عقبات تحول دون اعتناق الوثنيين الدين الجديد. إلا أنهم أبقوا على بعض المحرمات؛ فالوثنى المتحول إلى المسيحية قد يمسك عن خوض محنة ختان الكبار الأليمة، ولكن كان عليه «أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْ نَجَاسَاتِ الأَصْنَامِ وَالزِّنَا وَالْمَخْنُوقِ وَالدَّمِ»، أى أن يمسك عن تناول اللحم المقدم قربانًا لأحد الآلهة الوثنية[٧٧].

ولكن حتى هذه التشريعات الدنيا كانت تعنى انقطاع المسيحى عن اللهو العادى والمعاملات اليومية فى بلدة رومانية، أو هكذا يرى مسيحى متزمت لا يهادن كمؤلف سفر الرؤيا. وكانت الروابط الحِرفية تفتتح اجتماعاتها ببضعة أدعية لإله أو آخر من مجمع آلهة الوثنية الكلاسيكية. وكانت العملة الإمبراطورية تحمل وجوه أباطرة الرومان وآلهتهم

وصورهم. وحتى الوجبة العادية التى يتناولها المرء مع رفاقه أو أسرته ممن كانوا لا يزالون على وثنيتهم، كان من المرجح أن تشتمل على طعام أعد بلحم «قربانى» للآلهة، وذلك لسبب بسيط هو أن التقدمات الحيوانية والذبح بغرض الاستهلاك الآدمى كانا شيئًا واحدًا فى العالم القديم. وبالتالى فالمسيحى الورع كان عليه أن يعرض عن التعامل بالعملة الوثنية أو مع الروابط الوثنية، وعن المشاركة فى موائد الأصدقاء والمعارف الوثنيين.

ولم يكن هناك سوى قلة من المسيحيين مستعدين ـ على ما يبدو ـ للمهادنة أو التنازل فى بعض هذه النقاط أو كلها. وكذلك كان بعض المسيحيين بمدن آسيا الصغرى، إذ كانوا كاليهود الذين اتبعوا أنماط الحياة الإغريقية إبان ثورة المكابيين. وهكذا فإن الطوائف المسيحية التى كان يوحنا يبشر فيها تضم مسيحيين منتمين للروابط الوثنية ويبيعون ويشترون سلعًا بالعملات الإمبراطورية، وكانوا يشاركون فى موائد أصدقائهم ومعارفهم من غير المسيحيين. وكان بعض قسسهم ـ ومنهم من يسميهما يوحنا إيزابل وبلعام ـ يباركون هذه المهادنة على ما يبدو. فكانت المهادنة فى نظر بعض المسيحيين وكهانهم بمثابة وسيلة للإفلات من الاضطهاد وفى الوقت نفسه للإفادة من المكاسب المتاحة بمن يشاركون فى الحِرَف أو فى التجارة.

أما فى نظر مؤلف سفر الرؤيا ـ كما كان فى نظر دانيال وغيره من الكتّاب الرؤيويين من قبله، وعديد من المؤمنين الصادقين من بعدهم ـ فإن أدنى صور التنازل عن الإيمان الحق مدانة باعتبارها خطيئة بحق الرب. فيوحنا يضع التزمت ونقاء العقيدة فوق كل شىء، وهو لا يفرق بين التعامل بعملة رومانية والمشاركة فى عبادة الشيطان. بل إنه يعتبر أشباه المسيحيين مقززين، بل إنه يحول القدر نفسه من الاشمئزاز من الرب نفسه تجاههم. فيعلن يوحنا على لسان الرب فى سفر الرؤيا قائلاً: «لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّى أَنَا غَنِى وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ وَلاَ حَاجَةَ لِى إِلَى شَىْءٍ ... هَكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِى»[٧٨].

أى أن فقدان الحماس يجعل يوحنا (أو الرب نفسه إن شئنا الدقة) يشعر بالاشمئزاز. بل إن هناك معيارًا أكثر دقة ينطبق على زملائه المبشرين: فإذا لم تنطبق عليهم معاييره

الدقيقة فى التُّقى والدين الحق فإنهم لا يزيدون شيئًا عن البغايا والساحرات. وهذا ما يجعل المنطق الأخلاقى لسفر الرؤيا جاذبًا للناس فى كل عصر ممن يشاركون يوحنا فى اعتبار أدنى زلة انغماسًا فى النار.

ولا يقتصر يوحنا على انتقاد المسيحيين ممن لا يكلفون أنفسهم عناء سؤال مستضيفهم عن الطريقة التى ذبح بها اللحم المقدَّم على موائدهم. فهو يتهم كلاً من إيزابل وبلعام بتعليم المسيحيين المخلصين «أَنْ يَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ». ويواصل بإدانتهما بإغواء المسيحيين بارتكاب الزنا، وهى الخطيئة الأخلاقية الأولى التى استحوذت على تفكير أنبياء الكتاب المقدس العبرى الكلاسيكيين[٧٩]. بل إن يوحنا وقدوته من اليهود كانوا يعتبرون الزندقة والاختلاط الجنسى خطيئتين تبادليتين.

واللفظ اليونانى الذى يترجم عادةً بمعنى «زنا» (بورنيوساى) يحمل معنى «تشغيل البغايا»[٨٠]، ولكن من المستبعد أن تكون إيزابل وأتباعها كانوا يشاركون فى العهر أو حتى الاختلاط الجنسى. وربما كان «الزنا» لفظًا شفريًّا يتداوله مؤلفو الكتاب المقدس لوصف ما يسميه الباحثون «التوفيق بين المعتقدات»، أى التوفيق بين العقائد الدينية التى كانت شائعة فى الوثنية الكلاسيكية. وربما كان يوحنا يستعمل لفظ «زنا» فى إشارة إلى شىء ليس من قبيل عقد الزيجات بين من يُحظر عليهم الزواج فى ظل الشريعة اليهودية ولكنه غير محظور عليهم فى ظل القانون الرومانى.

إلا أن الكلمات والألفاظ التى يختارها يوحنا يُقصد بها الإيحاء بأن إيزابل نفسها وأتباعها المسيحيين كانوا مارقين وعُصاة جنسيًّا بالمعنى الحرفى، أصروا على المضى فى مغامراتهم الشهوانية حتى بعد أن تم تحذيرهم بالعواقب. بل إن نص سفر الرؤيا يوحى ـ وإن لم يكن يصف ـ بمشاهد بغاء أو مجون أو إنجاب أطفال سفاحًا دون رادع، وكلها أمور دعت بعض القراء الأكاديميين لاعتبار سفر الرؤيا عملاً من أعمال «العرى الرؤيوى»[٨١]. يقول «ابن الرب» فى إدانة إيزابل: «وَأَعْطَيْتُهَا زَمَانًا لِكَى تَتُوبَ عَنْ زِنَاهَا وَلَمْ تَتُبْ، هَا أَنَا أُلْقِيهَا فِى فِرَاشٍ وَالَّذِينَ يَزْنُونَ مَعَهَا فِى ضِيقَةٍ عَظِيمَةٍ إِنْ كَانُوا لاَ يَتُوبُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، وَأَوْلاَدُهَا أَقْتُلُهُمْ بِالْمَوْتِ»[٨٢].

والمعانى المزدوجة نفسها قد نجدها مدفونة فى إدانة يوحنا «تَعَالِيمِ النُّقُولاَوِيِّينَ الَّذِى أُبْغِضُهُ» والمسيحيين الآخرين ممن يؤمنون بما يسميه «أَعْمَاقَ الشَّيْطَانِ»[٨٣]. ومع أن النيقولاويين مجهولون تمامًا إلا على صفحات سفر الرؤيا، فإن آباء الكنيسة الأولى كانوا يعتبرونهم عصبة من الهراطقة بقيادة نيقولا، وهو شخصية يلفها الغموض ورد ذكرها بصورة عابرة بسفر أعمال الرسل[٨٤]. ومن الباحثين من يذهبون إلى أن يوحنا يشير إلى «فرقة إباحية مسيحية» كان من تعاليمهم السحر وغيرها من الممارسات الشيطانية وإباحة الجنس كأداة للتبصر الروحى[٨٥]. ويفترض أن النيقولاويين كانوا يبشرون بأن «المسيحى العاقل والناضج لا بد أن يعرف الحياة بأسوأ صورها وأفضلها، وبالتالى يجوز بل ينبغى ـ له أن يقترف أقبح الخطايا حتى يعرف ما هى» حسب قول الباحث الإسكتلندى ويليام باركلى[٨٦].

ولكن من الممكن أيضًا ـ بل الأرجح ـ أن النيقولاويين كإيزابل وبلعام كانوا مسيحيين متفتحين ومستعدين لتقديم تنازلات تسمح لهم بالمشاركة الكاملة فى «الحياة الاجتماعية والتجارية والسياسية» للمجتمعات الوثنية التى كانوا يعيشون فيها. وقد لا تزيد النعوت الملتهبة والبغيضة التى يرمى بها يوحنا أعداءه اللاهوتيين عن مجرد «أسماء شفرية» يوردها فى إشارة إلى القسس والمبشرين المسيحيين ممن «كانوا يسمحون بتناول الطعام المقدم قرابين للأوثان ويرضون بمهادنة ديانة الإمبراطور»[٨٧]. وإن صح ذلك فإن أسوأ آثامهم ـ وربما إثمهم الوحيد ـ كان وضعهم أنفسهم على الجانب الخطأ مما اعتبره يوحنا ساحة حرب حضارية.

ولا يبوح يوحنا بشىء عن الجوانب الحميمة من حياته، ولا ندرى ما إذا كانت له زوجة وأطفال أو ما إذا كانت له أسرة أصلاً. ولكنه يسمح لنا بأن نفهم أنه كان معرضًا تمامًا عن الحياة الجسدية، وحين يذكر الجنس فلا يبدو أنه كان يعتبر اللقاء بين الرجل والمرأة شيئًا سوى زنا. بل إن يوحنا يوضح فى سفر الرؤيا أنه يعتبر السلوك الجنسى برمته ـ حتى فى إطار الزواج ـ نوعًا من النجاسة.

يتنبأ يوحنا، مثلاً، أن هناك مائة وأربعة وأربعين ألف نفس ستُرفع إلى مكان مماثل لجبل صهيون فى السماء توهب فيه ميزة اتباع الحمَل «حَيْثُمَا ذَهَبَ»[٨٨]. فهم استُردوا

«مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بَاكُورَةً لِلَّهِ وَلِلْحَمَلِ»[٨٩] وهى عبارة تذكر بطقس القربان الحيوانى الذى كان يقدم فى هيكل أورشليم [القدس]، وتوحى بأنهم شهداء قدموا أسمى قربان للرب. ولتمييز «الباكورة» عن سائر بنى آدم، فإن اسم الرب واسم الحمَل «سيُختمان على جباههم»[٩٠]. ويحرص يوحنا على بيان أنهم سيتميزون أيضًا لسبب أقل وضوحًا وهو أنهم جميعًا ظلوا عزابًا طوال حياتهم. يقول يوحنا «هَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ لَمْ يَتَنَجَّسُوا مَعَ النِّسَاءِ لأَنَّهُمْ أَطْهَارٌ»[٩١].

هناك ضيق بالجنس بكافة صوره حتى فى إطار الزواج يمكن ملاحظته فى التراث الرؤيوى برمته. فسفر المراقبين، مثلاً، يلقى باللائمة عن وجود الشر فى الدنيا على هبوط الملائكة من السماء و«تنجيس أنفسهم» بمجامعة النساء «بكل نجاستهن»[٩٢]. ويذكر يوسفوس أن فرقة واحدة على الأقل من رهبان اليهود كانت تعرض عن الزواج والإنجاب، ويذهب الآثاريون إلى أن أعضاء الطائفة الرؤيوية بقمران كانوا فى معظمهم إن لم يكونوا جميعًا من العزاب. وفكرة اعتبار الجنس نجاسة متأصلة فى فقرات بعينها من الكتاب المقدس العبرى، حيث يؤدى أى سلوك جنسى بين الرجل والمرأة إلى تنجيسهما دينيًّا. فورد بفقرة فى سفر اللاويين أن: «وَالْمَرْأَةُ الَّتِى يَضْطَجِعُ مَعَهَا رَجُلٌ اضْطِجَاعَ زَرْعٍ يَسْتَحِمَّانِ بِمَاءٍ وَيَكُونَانِ نَجِسَيْنِ إِلَى الْمَسَاءِ»[٩٣].

هذا الموقف المتشدد من الجنس يصادفنا فى التراثين اليهودى والوثنى. فالقس أو الجندى لا حاجة لأن يكون عزبًا، ولكن لا بد له من أن يمسك عن مضاجعة النساء قبل القيام بأنشطة بعينها كأداء الطقوس الدينية وخوض المعارك. واشتراط الإمساك عن الجنس قبل الحرب كان المكابيون يعتنقونه فى حربهم على الذوبان [فى الأجانب] والاحتلال، إلا أن الجندى الوثنى الورع قد يؤمن بذلك أيضًا. ويبدو أن يوحنا أيضًا كان يؤمن بأن الجنود المسيحيين لا بد أن يستعدوا للمعركة الأخيرة بين الرب والشيطان بتجنب كل سلوك يؤدى للنجاسة كالجنس. إلا أن موقف يوحنا من الجنس كموقفه مما عداه مطلق ولا هوادة فيه.

وهناك مثال واضح على موقف يوحنا المتميز من التعاليم الأخلاقية للكتاب

المقدس العبرى. فهو يمسك بإحدى الوصايا التوراتية، ثم يواصل إضفاء صبغة راديكالية عليها. فالجنس نجاسة يمكن الاستغناء عنها فى التشريع اليهودى ـ فمن يتنجس بالدخول فى لقاء جنسى لا يحتاج إلا للغطس فى حمام طقسى ليتطهر ـ لكن يوحنا يذهب إلى ضرورة تجنب أى لقاء جنسى بين رجل وامرأة[٩٤]. ونظرًا لاقتناع يوحنا بأن آخر الزمان وشيك، ولكنه لا يدرى متى على وجه الدقة، فإنه يوصى بضرورة توقف الرجال والنساء على السواء عن النوم معًا وإلى الأبد حتى يكونوا أطهارًا حين تحل النهاية، سواء أحدث هذا غدًا أو فى لحظة غير معلومة فى المستقبل.

وهكذا يرى يوحنا فى الجنس شيئًا قذرًا ونجسًا فى كل الأحوال. والمتسامون الوحيدون الحقيقيون من البشر فى سفر الرؤيا العذارى والشهداء، وكافة أعدائه من البغايا والقوادين. وهو فاقد الثقة ومزدرٍ للمرأة عمومًا؛ والمرأة الفانية الوحيدة التى يذكرها يوحنا بالاسم، أى النبية المنافسة التى يسميها إيزابل، يدينها باعتبارها غاوية وزانية. والفقرات التى تركز فى سفر الرؤيا على اللقاءات بين الرجال والنساء تنم عن موقف متصارع بعمق تجاه الجنس «وربما يتضمن بغضًا وخوفًا من المرأة ومن جسده هو»[٩٥].

وهناك قراء آخرون لسفر الرؤيا يتشككون فى أن يوحنا قد يحتج أكثر من اللازم حين يتعلق الأمر بإدانة الجنس. فيشير د. هـ. لورنس الذى يشتهر برواياته الغرامية أكثر من اشتهاره بالتفسير التوراتى إلى أن أعظم زانية بسفر الرؤيا وهى زانية بابل شخصية شيقة وربما عن عمد. يقول لورنس فى معرض تعليقه على سفر الرؤيا: «كما يحسدون بابل على بهائها، ويحسدونها ويحسدونها! تجلس البغى فى جلال وبيدها كأس نبيذ المتعة الحسية الذهبى. كم كان الرؤيويون يتمنون لو رشفوا من كأسها! وبما أنهم لم يتمكنوا من ذلك فكم تمنوا أن يهشموها!»[٩٦].

بل إن يوحنا يبدى شيئًا قاتمًا ومقلقًا فى خياله الجنسى فى اللحظة التى يستحضر فيها الغاوية الكبرى وهى متسربلة بالحرير والجواهر، ويركز عينى خياله على ما تحمل فى يدها: «كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا»[٩٧]. وهى فقرة شديدة الإباحية فى سفر زاخر بالإباحية. وعندما يدعونا يوحنا لتصور ارتجاج هذه

«الرجاسات» و«النجاسات» فى ذلك الكأس الذهبى، فإن من دوَّن سفر الرؤيا ينبئنا بكل شىء نريد أن نعرفه عن موقفه المعذَّب من الجنس.

إن استحواذ الطهارة على فكر يوحنا يشمل كل شىء، بما فى ذلك الفكر اللاهوتى المجرد والاهتمامات الإنسانية كالجنس والطعام والمال، وقد تساعدنا شخصيته الاستحواذية على فهم سبب ما لسفر الرؤيا من تأثير بالغ على قرائه ممن تتوفر فيهم سمات مماثلة، بدءًا بالمتحمسين الدينيين وانتهاءً بالمخبولين طبيًّا. بل إن يوحنا يقدم لنا دليلاً نصيًّا لكاشفى الشفرات وأصحاب نظرية المؤامرة من المعرَّضين كيوحنا نفسه لرؤية الشيطان بصوره المستبعدة.

وليس من بين الألغاز التى ينثرها يوحنا فى أرجاء نص الرؤيا ما يضاهى «عدد الوحش»، أى شفرة حساب الجمَّل التى يقصد بها الرمز لاسم الإمبراطور الرومانى الذى عاش يوحنا وعمل فى عهده، الإمبراطور الذى نقش اسمه على المذابح الحجرية بالمدن السبع، وعلى المسكوكات الذهبية والفضية المتداولة فى أنحاء الإمبراطورية. يقول يوحنا فيما قد يعد الفقرة الأكثر إلغازًا فى سفر الرؤيا بأكمله: «هُنَا الْحِكْمَةُ! مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسِبْ عَدَدَ الْوَحْشِ فَإِنَّهُ عَدَدُ إِنْسَانٍ وَعَدَدُهُ: سِتُّ مِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ»[٩٨].

من محاولات اختراق لغز الرقم ٦٦٦ ما يركز على التناقض بين المعنى الرمزى لرقمى ستة وسبعة فى سفر الرؤيا. فكان يوحنا ـ كما رأينا ـ منبهرًا بالرقم سبعة، رمز الكمال الإلهى المستمد من أن الرب فى سفر التكوين فرغ من خلق الكون فى سبعة أيام. وإذا كانت السبعة ترمز للكمال الإلهى كما ذهب مفسرو الكتاب المقدس منذ القدم، فإن الستة ترمز للنقص الإنسانى (لا الشيطانى)، والرقم ٦٦٦ «عَدَدُ إِنْسَانٍ» كما يقول يوحنا صراحة.

إلا أن الرقم ٦٦٦ يعنى أيضًا شيئًا آخر وشيئًا محددًا تمامًا بالنسبة لمؤلف سفر الرؤيا. فيوحنا ـ كما رأينا ـ يمارس عادة علم الأعداد القديمة، أى استخلاص المعانى الخفية من ترتيب الأعداد والتلاعب بها، وهو أمر شائع فى الكتابات التوراتية والصوفية. ويرى يوحنا هنا أن الرقم ٦٦٦ شفرة تحوى اسم الإنسان الذى يدينه باعتباره «الوحش»،

فالرقم ٦٦٦ هو حرفيًّا «رقم اسمه». ويشير يوحنا إلى أن بعض قرائه وسامعيه حلوا الشفرة فعلاً: «مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسِبْ عَدَدَ الْوَحْشِ»[٩٩].

كانت أحرف الأبجدية فى العبرية القديمة واليونانية واللاتينية لها قيمة عددية أيضًا، ومن ثم فالأحرف يمكن استعمالها كما يستعمل أهل الغرب الأرقام العربية حاليًّا. وأشهر مثال على ذلك ـ والوحيد الذى لا يزال شائعًا حتى الآن فى العالم الغربى ـ استعمال الأرقام الرومانية للإشارة إلى تاريخ ما؛ فهذا الكتاب، مثلاً، نشر أول مرة فى سنة ٢٠٠٦م، أى MMVI. وكمثال بسيط على الشفرة بحساب الجمل والتى يستعملها مؤلف سفر الرؤيا نفترض أن «أ» يمكن استعمالها أيضًا بمعنى «١»، و«ب» بمعنى «٢» و«ج» بمعنى «٣» وهكذا. من ثم فكلمة «جاب» يمكن تشفيرها بالرقم «٦» وهو مجموع القيمة العددية لكل من أحرفها.

من ثم فعندما يشير يوحنا إلى «عدد الوحش» فهو يقصد القيمة العددية لأحرف الاسم كما يكتب باليونانية أو اللاتينية أو العبرية. والاسم كما هو شائع اسم أحد أباطرة روما. والحل التقليدى للغز الذى زرعه يوحنا فى سفر الرؤيا هو أن ٦٦٦ القيمة العددية للأحرف التى يتكون منها اسم أول من اضطهد المسيحيين من أباطرة الرومان أى القيصر نيرون (٣٧ ـ ٦٨م). لكن أوائل من فسروا سفر الرؤيا كما سبقت الإشارة يؤكدون أن النص ظهر أول مرة فى عهد دوميتيان (٥١ ـ ٩٦م) فى العقد الأخير من القرن الأول، أى بعد انتحار نيرون بحوالى ثلاثين سنة، لذا فإن معظم الباحثين يتفقون على أن أية إشارة لنيرون فى «عدد الوحش» تعد إشارة إلى الوراء إلى التاريخ القريب لا نبوءة عن شىء لم يحدث بعد.

ومع ذلك فليس هناك سطر واحد فى سفر الرؤيا يحث على الحدس ويثير الخلاف بقدر «اسم الوحش». فبعض مخطوطات سفر الرؤيا القديمة تقول إن عدد الوحش ٦١٦ وليس ٦٦٦ مثلاً، وترى قلة من الباحثين أن الرقم ٦١٦ يقابل اسم جايوس أو كاليجولا وليس نيرون. ومن ثم فالقيمة العددية للكلمة تتوقف على اختلاف هجائها، وأسماء الأباطرة وألقابهم تتم صياغتها وهجاؤها بصورة مختلفة فى اليونانية

واللاتينية والعبرية. فالقيمة العددية لاسم نيرون ولقبه فى العبرية، مثلاً، يمكن أن تكون ٦١٦ أو ٦٦٦ حسب طريقة هجائها، وهو ما قد يفسر سبب ظهور الرقمين فى مخطوطات سفر الرؤيا القديمة.

ويساعد يوحنا نفسه على تعقيد المشكلة بتقديم نبوءة غريبة ومحيرة عن الوحش تبدأ بزانية بابل العظيمة وهى تمتطى ظهر وحش أحمر «لَهُ سَبْعَةُ رُءُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ»[١٠٠]. وكأنبياء العبرانيين ممن اقتدى بهم يوحنا، فهو يسارع إلى التأكيد لقرائه على أن الزانية والوحش والرءوس والقرون كلها مجازية. فيقول دليله الملائكى: «لِمَاذَا تَعَجَّبْتَ؟ أَنَا أَقُولُ لَكَ سِرَّ الْمَرْأَةِ وَالْوَحْشِ الْحَامِلِ لَهَا الَّذِى لَهُ السَّبْعَةُ الرُّءُوسُ وَالْعَشَرَةُ الْقُرُونُ». فالرءوس السبعة، مثلاً، يقال إنها ترمز لـ «سَبْعَةُ مُلُوكٍ: خَمْسَةٌ سَقَطُوا وَوَاحِدٌ مَوْجُودٌ وَالآخَرُ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ وَمَتَى أَتَى يَنْبَغِى أَنْ يَبْقَى قَلِيلاً»[١٠١].

والمغامرة بتحديد هوية أباطرة الرومان السبعة الذين يرمز لهم بالرءوس السبعة موضوع آخر للتكهنات بين مفسرى سفر الرؤيا الهواة منهم والمتخصصون، القدامى منهم والمحدثون. فيبدأ بعضهم بيوليوس قيصر بينما يبدأ غيرهم بأغسطس، ويحصى بعضهم كافة أباطرة الرومان الأوائل المشهورين منهم والمغمورين على السواء، فى حين يجد بعض آخر منهم أنفسهم مضطرين للاختيار بينهم للخروج بنيرون باعتباره الإمبراطور المقصود. إلا أن لعبة عد الأباطرة ثبت أنها طريق مسدود حين يأتى الأمر لتحديد هوية الإمبراطور الذى يقابل اسمه الرقم ٦٦٦.

بل إن يوحنا حين يعد بحل ألغاز سفر الرؤيا لا يستطيع أن يقاوم الرغبة فى جعلها أكثر إلغازًا. فما أن يشرع الملَك فى تفسير رمزية الرءوس السبعة، حتى يقدم لغزًا آخر محيرًا، يقول الملَك: «الْوَحْشُ الَّذِى رَأَيْتَ كَانَ وَلَيْسَ الآنَ وَهُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَصْعَدَ مِنَ الْهَاوِيَةِ»[١٠٢]. ويذهب بعض الباحثين إلى أن يوحنا يقصد المقولة الرومانية القديمة التى تقول إن نيرون القتيل سيبعث ذات يوم من الموت ويعود إلى العرش، ويقولون إن نيرون «الذى يُبعث» هو «الوحش الذى كان وليس الآن»، وهو الشقى الأكبر الذى ينتهى العالم فى عهده[١٠٣].

ومن قراء سفر الرؤيا الخبراء من تعبوا وأحبطوا نتيجة محاولتهم حل أحاجى الرؤيا فرفضوا الأمر برمته باعتباره مجرد «رجم بالغيب لا طائل من ورائه»[١٠٤]. والحقيقة أننا لا نعلم يقينًا أى أباطرة الرومان يقصد يوحنا حين يتحدث عن «الوحش». إلا أن الأمر لا أهمية له عند يوحنا. وإذا كان هناك شىء واحد أوضحه يوحنا فى سفر الرؤيا فهو أنه اعتبر أباطرة الرومان جميعًا ـ وكلاً من أعدائه الكثر وبصرف النظر عن مكانتهم أو مواطنتهم ـ مخيفين ومقززين.

يعطى يوحنا انطباعًا بأن المسيحيين بالمدن السبع يواجهون خيارًا رهيبًا. فهم يجازفون بخسران السماء إذا ما أذعنوا لإغراءات الوثنية الرومانية، ويغامرون بفقد حياتهم إذا ظلوا على إيمانهم بالعقائد والممارسات المسيحية. بل إن سفر الرؤيا يحثنا على أن نتصور قراءه وسامعيه الأوائل طائفة من مشاريع الشهداء كلٌّ منهم عرضة للخيانة والحبس والتعذيب والاضطهاد من قبل السلطات الرومانية، وكلٌّ منهم مستعد لمواجهة الموت وبطش الحاكم الشيطانى الجاثم على عرش روما على أن ينخرط فى عمل وثنى واحد. يقول يوحنا وهو ينشر كلمة الرب: «لاَ تَخَفِ الْبَتَّةَ مِمَّا أَنْتَ عَتِيدٌ أَنْ تَتَأَلَّمَ بِهِ هُوَ ذَا إِبْلِيسُ مُزْمِعٌ أَنْ يُلْقِيَ بَعْضًا مِنْكُمْ فِي السِّجْنِ لِكَي تُجَرَّبُوا وَيَكُونَ لَكُمْ ضِيقٌ عَشَرَةَ أَيَّامٍ كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ»[١٠٥].

وتحقق الهدف فى العديد من الرؤى الأغرب التى يصفها يوحنا فى سفر الرؤيا. فمن بين المخلوقات الشيطانية التى يرى «وحشان» أحدهما يخرج من البحر والآخر من تحت الأرض. الوحش الأول وهب القدرة على «أن يَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ الْقِدِّيسِينَ»[١٠٦] وهو ما يقصد به يوحنا المسيحيين المؤمنين، والوحش الآخر أعطى القدرة على أن «يَجْعَلَ جَمِيعَ الَّذِينَ لاَ يَسْجُدُونَ لِصُورَةِ الْوَحْشِ يُقْتَلُونَ»[١٠٧]. وفيما بعد حين يفتح الحمَل الختم الخامس عن اللفيفة التى دون عليها مصير العالم، يرى يوحنا منظرًا غريبًا «تحت مذبح» الهيكل السماوى: «نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ الرَّبِّ»[١٠٨]. أى من قتل من المسيحيين على يد السلطات الرومانية.

ولكن من بين كل المسيحيين بمدن آسيا السبع جميعًا لا يتعرف يوحنا إلا على

ضحية واحدة من لحم ودم قُتل لرفضه الخضوع لمطالب القانون الرومانى. فيقول فى رسالته لكنيسة برغامس على لسان الرب: «وَلَمْ تُنْكِرْ إِيمَانِى حَتَّى فِى الأَيَّامِ الَّتِى فِيهَا كَانَ أَنْتِيبَاسُ شَهِيدِى الأَمِينُ الَّذِى قُتِلَ عِنْدَكُمْ حَيْثُ الشَّيْطَانُ يَسْكُنُ»[١٠٩]. واللفظ المستعمل لتحديد هوية أنتيباس التعيس ـ «شهيد» ـ يرد بالنص اليونانى الأصلى لسفر الرؤيا بالمعنى نفسه «مارتيس»[١١٠]. ويتبين أن أنتيباس الشهيد الوحيد المعرف باسمه فى سفر الرؤيا بأكمله.

ومصير الشهيد الأوحد يتسق مع ما نعرف عن السياق التاريخى لسفر الرؤيا. فكانت برغامس فى الحقيقة واحدة من البلدات التى توقف بها الوالى الرومانى ليسمع الدعاوى القضائية ويفصل فيها، وربما كانت مقره الرسمى فى أواخر القرن الأول. وصحيح أن عقوبة الإعدام نفذت فى بعض المسيحيين ممن أخذوا بنصح مبشرين وأنبياء كيوحنا وأبوا الخضوع للسلطات الرومانية. بل إن هذا المشهد يصفه بلينى الأصغر الذى استُدعى للتحقيق والحكم على بعض المشتبه بهم ممن اتهمهم أحد الوشاة باعتناق المسيحية فى أثناء عمله حاكمًا على بيتونيا وبنطس فى أوائل القرن الثانى.

كتب بلينى للإمبراطور تراجان قائلاً: «النهج الذى اتبعتُ تجاه من أُبلغت بأنهم يدينون بالمسيحية كما يلى: استجوبتهم عما إذا كانوا مسيحيين. ومن أنكروا أنهم اعتنقوا أو يعتنقون المسيحية ورددوا ورائى دعاء للآلهة وقدموا تقدمات نبيذ ولبان بخور لصورتك التى أمرتُ بإحضارها ومعها صور الآلهة خصيصًا لذلك الغرض وسبُّوا المسيح ـ وكلها أفعال يقال إن المسيحيين الحقيقيين لا يقدمون عليها أبدًا وإن أكرهوا ـ هؤلاء رأيتُ من المناسب أن أطلق سراحهم؛ وإن اعترفوا أكرر السؤال مرتين مع إضافة التهديد بالإعدام؛ فإن أصروا آمر بإعدامهم»[١١١]. و«عبادة الإمبراطور» كما يقول بلينى لم تصل إلى ما هو أبعد من سكب بعض النبيذ فيما يعرف بتقدمة الشراب، وإلقاء حفنة من البخور على نار المذبح أمام صورة للإمبراطور. ولم يكن الطقس يعد تأكيدًا لعقيدة دينية بقدر ما كان تعبيرًا عن ميزة مدنية، ولا يختلف عن ترديد قسم الولاء فى مدارس اليوم. إلا أن هذا الطقس كان أيضًا بمثابة اختبار للولاء؛ فإذا كان القصد من التقدمة الرمزية للإمبراطور التأكيد على أمن الإمبراطورية، فإن أى مواطن يأبى الإقدام عليه كان يشتبه فى عدم ولائه إن لم

يكن خيانته الصريحة. من ثم فالجريمة التى كان يقترفها الشهيد فى نظر القانون الرومانى كتلك التى حكم على يسوع الناصرى بالإعدام بسببها، يمكن اعتبارها جريمة سياسية بحتة.

كما يبين بلينى أن المسيحيين الأشد حماسًا كانوا وحدهم من يخضعون لعقوبة الإعدام. ومن كان يعترف بمسيحيته كان يطلب منه تكرار الاعتراف ثلاث مرات: وكان يتم تذكيرهم بالعقوبة إذا تشبثوا بالاعتراف، وهو أسلوب استجواب يبدو أنه كان يدفع بالعديد من المتهمين لسحب اعترافاتهم باعتناق المسيحية. يقول بلينى فى إشارة إلى الواشى الذى كان يبلغ سرًّا عن المسيحيين الخاضعين للاستجواب: «والآخرون ممن كان ذلك الواشى يحدد أسماءهم اعترفوا على أنفسهم بأنهم مسيحيون ثم أنكروا وسجدوا لتمثالك ولصور الآلهة وسبُّوا المسيح»[١١٢].

وهكذا يمكن تصديق أن أنتيباس آل إلى المصير نفسه كما يصف بلينى. ربما اتهمته السلطات واستجوبه القاضى وأعدم بأمر من الوالى الرومانى تمامًا كما يقول يوحنا. لكن المسيحيين الآخرين جميعًا ممن ورد ذكر موتهم بسفر الرؤيا، أو «النفوس» التى يشير إليها يوحنا «تحت المذبح» والذكور الأبكار البالغ عددهم مائة وأربعة وأربعين ألفًا ممن دُعينا لاعتبارهم تقدمات قربانية للرب لا يرد لهم ذكر إلا فى رؤى يوحنا عن آخر الزمان.

هل يحتمل إذن أن يوحنا نفسه لم يكن يعرف إلا شهيدًا مسيحيًّا واحدًا؟

يؤكد يوحنا أن المسيحيين لا بد أن يمروا بمحنة طويلة ومريرة ـ أو «ضيقة» على حد تعبيره ـ قبل أن يدخلوا فى النهاية «سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً»[١١٣]. ويتفق الباحثون المحدثون على أن سفر الرؤيا والتراث الرؤيوى كله يعد طريقة للتعامل مع القهر والاضطهاد بتصور عالم أفضل آتٍ: «فلاهوت الرؤيا يصاغ فى مواجهة اضطهاد ونفى وسجن وإعدام» حسب قول إليزابيث شوسلر فيورنتسا الباحثة النسائية فى الكتاب المقدس ومن أنصار «لاهوت الخلاص» وتعتبر أيضًا من كبار مفسرى سفر الرؤيا من الكاثوليك[١١٤]. ولو كان هناك أى منطق فى سفر الرؤيا على الإطلاق فبوصفه بلسمًا كلاميًّا لأجساد وأرواح القديسين الذين عانوا.

يقول روبنسن باحث العهد الجديد مردداً حكمة تقليدية: «شيء واحد يمكن أن نتيقن منه، هو أن الرؤيا ما لم تكن نتاج خيال متقد وذهانى دوِّن من واقع تجربة مكثفة لما عانى المسيحيون على أيدى السلطات الإمبراطورية متمثلة فى «وحش بابل»[١١٥].

ومع ذلك فليس من الحقائق المستقرة أن قراء سفر الرؤيا وسامعيه الأوائل كانوا هم أنفسهم من ضحايا الحبس والتعذيب والإعدام. فيوحنا نفسه يبدو أنه عاش فى عالم وثنى يسهل فيه على المسيحى أن يهادن السلطات الرومانية. بل إن يوحنا كان سيصبح أسعد كثيراً لو كان الحال غير الحال، ومن الواضح أنه يؤثر الشهداء الموتى على المسيحيين ضعفاء الإيمان المستعدين لمهادنة السلطات الرومانية حتى يحيوا حياة طيبة. ولا نجد أسوأ تجاوزات الاضطهاد الرومانى إلا فى رؤى يوحنا عن آخر الزمان لا فى سجلات التاريخ. أو إن شئنا المزيد من الرفق «يعبر سفر الرؤيا عن توقع مؤلفه الاضطهاد» كما تقول آديلة ياربرو كولنز لا عن معاناته تجربة الاضطهاد[١١٦].

هناك رواية مسيحية تعود للقرن الخامس تحكى عن عشر فترات اضطهاد فى روما الوثنية، أولها فى عهد نيرون «المضطهد الأكبر» بالقرن الأول، وانتهاءً بالاضطهاد الكبير فى عهد ديوقليتيان بالقرن الرابع[١١٧]. وإذا حكمنا من سجلات الشهداء التى أنشئت فى العصور الوسطى فإن إلقاء المسيحى للأسود كان أرق البشاعات. ولكن فى سنة ١٧٧٦م، تحدث إدوارد جيبون بصراحة أكبر عن موضوع الاستشهاد المسيحى، فلا يحصى سوى ألفين تقريباً من الضحايا إبان ما يعرف «بالاضطهاد الأكبر»، ويؤكد أن العديد من الشهداء كانوا يلتمسون فرصة الموت فى سبيل عقيدتهم بكل شوق وهمة، ويشكك فى أن موتهم كان كما ورد فى مشاهد جراند جينيول التى تطالعنا فى سجلات الشهداء المسيحيين.

يقول جيبون فى كتابه The Decline and Fall of the Roman Empire (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها): «من السهل جمع سلسلة طويلة من الصور البشعة والمقززة وملء العديد من الصفحات بالرزايا والنوائب وبخطاطيف حديدية، وأسرّة حمراء ساخنة، وبكافة ألوان التعذيب، والوحوش الشرسة. ولكنى لا أستطيع أن أحدد إلى أى مدى يمكننى أن أصدق»[١١٨].

والباحثون المحدثون لا يجدون بدًّا من التسليم بأن اضطهاد المسيحيين لا سيما فى زمن تدوين سفر الرؤيا ومكانه ــ لم يكن بالصورة المروعة، ولا بمدى الانتشار الذى يوحى به يوحنا. قد يكون نيرون «وحش» سفر الرؤيا، لكن حبس المسيحيين ومعاقبتهم فى عهده لم يكن يحدث «إلا فى روما فى مناسبة واحدة» حسب قول چورچ إلدون لاد عالم اللاهوت البروتستانتى الكبير وأحد مفسرى سفر الرؤيا[١١٩]. وكانوا يعتقلون ويعاقبون بتهم إحراق متعمد مفتعلة وليس بجرائم دينية محددة؛ لذا فإن آديلة ياربرو كولنز تعتبر الحكاية عملاً «شرطيًّا» لا اضطهادًا[١٢٠].

وفى حياة يوحنا ولمدة قرنين بعده، ظل عقاب المسيحيين على أيدى السلطات الرومانية «محليًّا فى طابعه أو مخففًا نسبيًّا فى تنفيذه». وربما قصر دوميتيان ـ وهو مرشح آخر للوحش الذى رقمه ٦٦٦ ــ اضطهاده على «قلة من الأسر المسيحية فى روما»[١٢١]. وحتى فى تلك الحقبة فإن معظم المسيحيين ممن تعرضوا لبطش الرومان ربما كانوا من المؤمنين الحقيقيين ممن كانوا يسعون للشهادة سعيًا. بل إنه كان من اليسير على أى مسيحى مستكين أن يفر من البطش من أى نوع بمهادنة السلطات الوثنية وبإلقاء حفنة بخور على نار المذبح كما يشير يوحنا نفسه.

وهكذا فإن سفر الرؤيا ينبغى فهمه كعمل كتبه رجل لم يتعرض للاضطهاد على الإطلاق، ولكن «يبدو أنه يشعر بأنه ضحية ظلم» فى رأى آديلة كولنز[١٢٢]. ولا يعتبر يوحنا السلطات الرومانية عدوه الأول أو حتى أسوأ أعدائه. ويحزنه من يتهمهم بالافتقار للصفاء والحماس من إخوانه المسيحيين. وهو غاضب على اليهود ممن أبوا الإيمان بيسوع الناصرى باعتباره المسيح المنتظر، وعلى الرغم من دعوة المبشرين من أمثاله. ومن سمات يوحنا الذهنية وصف خصومه جميعًا، الحقيقيين منهم والافتراضيين، بأنهم أعداء أخلاقيون، بل عملاء للشيطان، وهى حيلة بلاغية ربما كانت هديته الوحيدة الدائمة لمن جاءوا بعده.

بالطبع، لم يكن يوحنا أول نبى رؤيوى أو الوحيد الذى يرى العالم الذى يحيا فيه ـ وتاريخ البشرية برمته ـ كساحة حرب بين الرب والشيطان، وهى فكرة لاهوتية تعرف بـ «الثنوية». وربما تسربت هذه الفكرة إلى التراث اليهودى من لاهوت فارس

القديمة، وكانت مسيطرة على ذهن دانيال بشدة وهو يرى فظائع الاحتلال والبطش فى عهد الملك السورى قبل مولد يوحنا بقرنين من الزمان. ومع ذلك يظل يوحنا مضطرًّا للرد على السؤال الذى يطرح نفسه: ما الموقف السليم الذى ينبغى للمؤمن الحق أن يتخذ إذا اضطر للعيش فى مملكة شيطانية؟

من الأجوبة أن يحمل السيف ويقاتل. فكان المكابيون و«الغيورون» مثلاً مستعدين للمجازفة بالموت فى حربهم على خصومهم الوثنيين، وكانوا يؤثرون الانتحار على الاستسلام حين ينهزمون فى الحرب. ومن الأجوبة أيضًا أن ينأى المرء بنفسه عن مغريات العالم الوثنى ورزاياه، وأن يحيا بعيدًا فى صفاء البرية وعزلتها. فالرهبان اليهود، مثلاً، انتبذوا فى مجتمعات مثلى كمجتمع قمران بصحراء يهوذا. ولكن كانت ثمة إجابة ثالثة وهى التى اختارها يوحنا: ألا يفعل شيئًا على الإطلاق سوى الفرجة والانتظار حتى آخر الزمان حين يدمر الرب العالم بصورته التى نعرفها، ويبعث القديسين من بين الأحياء والموتى ويثيبهم «سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً».

الخيارات نفسها يمكن إدراكها فى الكتابات الرؤيوية الأقدم. فسفر دانيال وأقسام من سفر أخنوخ، مثلاً، دونت إبان ثورة المكابيين، لكن كلاًّ منهما يتخذ موقفًا مختلفًا تمامًا من شرور الوثنية. فيبدو أن «رؤى أخنوخ» وهى إحدى الأعمال الرؤيوية التى تم ضمها إلى سفر أخنوخ تؤيد قتال المكابيين المسلح حين تصور تحول حمَل وادع خنوع إلى كبش ضخم ذى قرنين، وهى صورة لقواد عسكريين عظام أو لمسيح محارب[١٢٣]. أما «الحكماء» فى سفر دانيال، فمستعدون للقعود فى صبر وسلبية فى انتظار مجىء رئيس الملائكة ميخائيل لينقذهم فى آخر الزمان، حتى لو كان ذلك معناه الشهادة هنا والآن. يقول چون كولنز: «قد يخسرون حياتهم فى الدنيا؛ لأنهم وُعدوا بمجد أعظم فى الآخرة»[١٢٤].

كان دانيال لا أخنوخ أكبر مؤثر على يوحنا. فعلى الرغم من كل ما فى سفر الرؤيا من عصف ودفع فإن يوحنا من أنصار «السكوت» كما يسميه الباحثون، أى أنه يوصى قراءه وسامعيه ألا يعملوا شيئًا إزاء ما يحيط بهم من شرور إلا التمسك بالإيمان، والاستكانة. وتتراءى له معركة دامية بين جيش الرب وجيش الشيطان ــ «قِتَالُ ذَلِكَ

الْيَوْمِ الْعَظِيمِ يَوْمِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» ـ ولكنها ستكون «حَرْبًا فِي السَّمَاءِ». وفى نهاية العالم حين تهلك روما يكون دمارها بيد الرب وحده: «افْرَحِي لَهَا أَيَّتُهَا السَّمَاءُ وَالرُّسُلُ الْقِدِّيسُونَ وَالأَنْبِيَاءُ لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ دَانَهَا دَيْنُونَتَكُمْ»[١٢٥].

وكغيره من الكتّاب الرؤيويين يتخذ يوحنا من الحمَل رمزًا للمسيح. فذلك المخلوق الضعيف الذى يمثل تقدمة قربانية بالهيكل الأرضى بأورشليم [القدس] يتحول فى سفر الرؤيا إلى ملِك محارب فى أورشليم [القدس] السماوية. ويقول إن أباطرة الرومان الذين يخدمون «الوحش» «سَيُحَارِبُونَ الْحَمَلَ وَالْحَمَلُ يَغْلِبُهُمْ لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ». والحمل مزود بترسانة من الأسلحة السماوية ومنها «سَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ»، وسيأتى بها ملك الملوك حسب وعد يوحنا لخوض حرب مقدسة على الشيطان وزبانيته الذين يضطر المسيحيون الورعون حينئذ ـ ومنهم يوحنا ـ للعيش بين ظهرانيهم[١٢٦].

إلا أن يوحنا لا ينصح قراءه وسامعيه بإشهار السيف. فالمسيحيون الورعون هنا على الأرض يوصيهم يوحنا بالصبر والسلبية حتى إذا تعرضوا للحبس والتعذيب والقتل. بل إنه يتنبأ بأن روما ستشرب حتى الثمالة من «دَمُ أَنْبِيَاءَ وَقِدِّيسِينَ»، ولكنه يوصَى ـ ويوصِى قراءه وسامعيه ـ بأن ميتة الشهيد شىء يتمناه المرء بكل صدق: وَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً لِي: «اكْتُبْ طُوبَى لِلأَمْوَاتِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ فِي الرَّبِّ مُنْذُ الآنَ»[١٢٧].

إن من سمات سفر الرؤيا شغفه بالثأر. ولكنه شغف من يتخيل نفسه بلا حول ولا قوة. فيوحنا تتقد نفسه بغضب مدمر على روما، ولكنه يُكره على كظم حقده إلى اليوم العظيم حين يمن الرب بالنزول من السماء ليضع نهاية لأعدائه. يقول يوحنا عن آخر الزمان: «إِذْ قَدْ دَانَ الزَّانِيَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي أَفْسَدَتِ الأَرْضَ بِزِنَاهَا وَانْتَقَمَ لِدَمِ عَبِيدِهِ مِنْ يَدِهَا»[١٢٨]. وقد يكون آخر الزمان قريبًا كما يؤكد يوحنا مرارًا لسامعيه ولكنه لم يحن بعد. وفى الوقت نفسه يحث إخوانه المسيحيين على الجلوس والانتظار.

يقول يوحنا: «مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ ... هُنَا دَعْوَةٌ لِصَبْرِ الْقِدِّيسِينَ وَإِيمَانِهِمْ»[١٢٩].

وهنا أيضًا نجد نصيحة صريحة تجاهلها بعض من أشهر قراء سفر الرؤيا وسامعيه.

فمن حين لآخر ـ كما سنرى ـ يدفع سفر الرؤيا كثرة من الناس لاعتبار أنفسهم ملائكة تثأر لا قديسين يعانون، وهم قائمة طويلة تبدأ بـ«ساڤونارولا» فى القرن الخامس عشر إلى ديڤيد كورش بأواخر القرن العشرين. ومما يحسب ليوحنا أنه لا يطلب من قرائه وسامعيه شيئًا كهذا، ولا شك أنه كان سيدهش ويفزع لما آل إليه سفره من مصير على أيدى بعضهم. إلا أن أكبر فشل منيت به نبوءة فى سفر الرؤيا ـ بالإضافة إلى أن العالم لم ينته بعد كما تنبأ ـ هى أن «الحبر المسيحى» لم يكن يدرى أن معانى سفره الصغير وعباراته مقدر لها أن تتغير بانتقال نصه من مدن آسيا الصغرى السبع إلى بقية الإمبراطورية الرومانية، ثم إلى تاريخ العالم.

ولد يوحنا بشكل شبه مؤكد ونشأ يهوديًّا، ويبدو أنه يخاطب جمهورًا يألَف كتابات اليهود المقدسة. ففى الفقرات البالغ عددها أربعمائة وأربعًا والتى يتألف منها سفر الرؤيا كما أحصاها أحد الباحثين، يمكن تمييز أكثر من خمسمائة إشارة ضمنية إلى الكتاب المقدس العبرى. فالسفر فى الحقيقة قائمة من التيمات والمواريث اليهودية بدءًا من الأسباط الاثنى عشر إلى هيكل يهوه. ومع ذلك فأفضل دليل على هوية يوحنا اليهودية نجده مدفونًا فى ثنايا أشد سطور سفر الرؤيا بغضًا، حيث يشير يوحنا ضمنًا إلى أنه أصدق يهودية من أعدائه فى المجتمع اليهودى. يقول يوحنا على لسان يسوع المسيح: «هَئَنَذَا أَجْعَلُ الَّذِينَ مِنْ مَجْمَعِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْقَائِلِينَ إِنَّهُمْ يَهُودٌ وَلَيْسُوا يَهُودًا بَلْ يَكْذِبُونَ: هَئَنَذَا أُصَيِّرُهُمْ يَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَ رِجْلَيْكَ وَيَعْرِفُونَ أَنِّى أَنَا أَحْبَبْتُكَ»[١٣٠].

وحتى استعمال يوحنا شبه المفرط للرقم سبعة، يمكن قراءته كإشارة ضمنية للكتابات المقدسة اليهودية. فخلق الرب كما ورد بسفر التكوين تم فى سبعة أيام ـ «وَفَرَغَ اللهُ فِى الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِى الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الذِى عَمِلَ»[١٣١] ـ وهكذا يصبح الرقم سبعة رمز الكمال الإلهى فى التراث اليهودى. وعندما يشير يوحنا إلى العلامات والرموز فى مجموعات السبعة ـ سبعة ملائكة وسبعة أختام وسبع نوافير وسبعة رعود وما إلى ذلك ـ فهو يقصد الإيحاء بأن مشيئة الرب سارية فى خلق الكون ودماره. يقول يوحنا عن المَلَك السابع الذى يظهر بعد الرعد السابع: «وَالْمَلاَكُ الَّذِى رَأَيْتُهُ وَاقِفًا عَلَى الْبَحْرِ وَعَلَى الأَرْضِ رَفَعَ يَدَهُ إِلَى

السَّمَاءِ. وَأَقْسَمَ بِالْحَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا وَالأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْبَحْرَ وَمَا فِيهِ أَنْ لاَ يَكُونُ زَمَانٌ بَعْدُ»[١٣٢].

وهناك مشاهد أخرى بسفر الرؤيا تذكر بفقرات بعينها من الكتاب المقدس العبرى. فيوحنا مدرك، مثلاً، لفقرة سفر حزقيال التى يعطى الرب فيها نبيه سفر «مَرَاثٍ وَنَحِيبٍ وَوَيْلٍ» ثم يصدر له أمرًا غريبًا: «يَا ابْنَ آدَمَ، كُلْ مَا تَجِد. كُلْ هَذَا الدَّرْجَ، وَاذْهَبْ كَلِّمْ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ»[١٣٣]. ويدعى يوحنا لنفسه التجربة بعينها: فيرسل الرب لفيفة (أو «سفرًا صغيرًا» حسب ما ورد بنسخة الملك چيمس) من خلال رسول ملائكى، ويؤمر يوحنا أيضًا بأن «يأخذها ويأكلها». وهنا يدمج يوحنا كتابات اليهود المقدسة فى سفره بصورة شبه حرفية. ويقول: «فَأَخَذْتُ السِّفْرَ الصَّغِيرَ مِنْ يَدِ الْمَلاَكِ وَأَكَلْتُهُ. فَقَالَ لِى: يَجِبُ أَنَّكَ تَتَنَبَّأُ أَيْضًا عَلَى شُعُوبٍ وَأُمَمٍ وَأَلْسِنَةٍ وَمُلُوكٍ كَثِيرِينَ»[١٣٤].

والإشارة إلى «الشعوب والأمم والألسنة» تسمح لنا بتفهم البغض والحقد الذى يمور فى نفس يوحنا ويفور فى سفر الرؤيا. «ويناشد يوحنا اليهود ... «أصحاب» التراث أن يتقبلوه هو ورؤياه» حسب قول إليزابيث شوسلر فيورنتسا، إلا أن وصاياه تلقى الرفض من اليهود من جمهوره. وإذا كان بيت إسرائيل رفض الاعتراف بأن يسوع الناصرى هو المسيح، فإن يوحنا يقرر التوجه بخطابه إلى الشعوب والأمم والألسنة الأخرى. ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل الإهانة التى وجهها له اليهود ممن ظلوا على ولائهم لتراثهم، فيرد الإهانة بزفهم جميعًا إلى «مَجْمَعِ الشَّيْطَانِ»[١٣٥]. وهكذا فمن الغريب أن ما يعد أكثر سطور الكتابات المقدسة المسيحية معاداة للسامية يمكن اعتباره صرخة يهودى ازدراه إخوانه اليهود.

وفى حين يجد يوحنا سعادة فى التلميح إلى استعارته من الكتاب المقدس العبرى فإنه لا يقتبس نصه حرفيًّا. بل يستعين بالكتابات المقدسة اليهودية كـ«ترسانة لغوية» على حد قول إليزابيث شوسلر فيورنتسا، ويختار الأفكار والصور والأحداث التى تلائم أغراضه البلاغية[١٣٦]. وربما لم يكن بحوزته نسخة من الكتاب المقدس حين كان يتكلم ويكتب، أو لعله لم يكن يجد غضاضة فى القص واللصق من النص القديم

مباشرة. يقول أحد الباحثين فى الكتاب المقدس: «الروح النبوية تبدع ولا تقتبس حتى تعلِّم أو تجادل»[١٣٧].

ولا يقتصر يوحنا على المصادر اليهودية وحدها. فقد يدين الحضارة الإغريقية الرومانية بكل ثرائها وأمجادها باعتبارها من عمل الشيطان، ولكن يبدو أنه يعرف فن صور القديسين الوثنى ويستعير منه بحرية تامة. والسبعة رقم مقدس فى التراث اليهودى بكل تأكيد، ولكن كانت له أهمية أيضًا فى المعتقدات والممارسات الفلكية للوثنية الكلاسيكية التى لم تعرف سوى سبعة أجرام سماوية. والاثنا عشر عدد أسباط بنى إسرائيل، ولكنه أيضًا عدد الأبراج الفلكية. والحقيقة أن علم الفلك مكروه فى الكتاب المقدس باعتباره أحد خطايا الوثنية ـ «تقدِمات لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْمَنَازِلِ، وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ»[١٣٨] ـ ومع ذلك فربما كان يوحنا يستحضر هذه الصور والصلات فى نص سفر الرؤيا.

ومن أكثر المشاهد سموًّا فى سفر الرؤيا مثلاً «النذير العظيم» الذى سيظهر فى السماء كإحدى علامات بدء نهاية الكون: «امْرَأَةٌ مُتَسَرْبِلَةٌ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرُ تَحْتَ رِجْلَيْهَا وَعَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِنِ اثْنَى عَشَرَ كَوْكَبًا». والمرأة وهى حبلى وفى حالة مخاض تفاجأ بـ «تِنِّينٌ عَظِيمٌ أَحْمَرُ» ينتظر لكى يلتهم وليدها بمجرد أن تضعه. لكن رئيس الملائكة ميخائيل ـ وهو شخصية تظهر أولاً فى سفر دانيال المصدر الأثير لدى يوحنا فى الكتاب المقدس العبرى ـ يقاتل التنين الأحمر الذى يتبين هنا والآن أنه من أغوى حواء أصلاً «الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ»[١٣٩].

وقراءات سفر الرؤيا التقليدية تعتبر المرأة مريم العذراء والوليد يسوع، «ابْنًا ذَكَرًا عَتِيدًا أَنْ يَرْعَى جَمِيعَ الأُمَمِ» و«اخْتُطِفَ وَلَدُهَا إِلَى اللهِ وَإِلَى عَرْشِهِ»[١٤٠]. ولكن يمكن أيضًا إدراك أصول ومعان أقل تقليدية. يقول أوستن فارر: «إن ذهن القديس يوحنا موجه للعمل على أساس نمط أسطورى شديد القدم»، ويرى أن يوحنا استعار شخصية المرأة من علم الفلك الوثنى «امرأة الفلك» التى «عَلَى رَأْسِهَا إِكْلِيلٌ مِنِ اثْنَى عَشَرَ كَوْكَبًا»[١٤١]. ويرى باحثون آخرون أنها الإلهة أرتميس التى كانت تعبد بأبهة بالغة

بمعبد أرتميسيوم بمدينة أفسس، أو الإلهة روما «ملكة السماء» التى جرى الظن بأن وليدها الإلهى هو الإمبراطور الرومانى الذى وجدت صورته على المسكوكات الرومانية الملكية فى القرن الأول[١٤٢].

بل إن الشخصية نفسها موجودة فى الأساطير المقدسة فى العالم القديم كله: «إلهة عالية ذات سمات علوية: الشمس ثوبها والقمر ركابها والنجوم تاجها»[١٤٣]. حتى المأزق الرهيب لامرأة فى حالة مخاض ويحدق بها وحش خاطف يعد عنصرًا قصصيًّا مألوفًا فى فن صور القديسين الوثنى. فالإلهة المصرية إيزيس مثلاً تكافح من أجل إنقاذ ابنها من هجمات الأفاعى والعقارب، والإلهة الإغريقية ليتو تتهددها أصلة [ثعبان كبير جدًّا] وهى حبلى فى أپوللو. تقول إليزابيث شوسلر فيورنتسا: «فى كل من هذه الأساطير يسعى التنين وراء الوليد الذى لم يولد بعد حتى يلتهمه أو يقتله. وتطارَد المرأة وهى لا تزال حبلى. وتضع حملها والتنين على بعد خطوات منها، والوليد الذكر الذى تضع يُرفع إلى السماء ويفلت من براثن التنين»[١٤٤].

وفوق هذا وذاك فإن «الحرب فى السماء» بين رئيس الملائكة ميخائيل والتنين الأحمر ـ نقطة الذروة الغيبية فى سفر الرؤيا ـ تعد من بقايا ما يعرف بأسطورة الصراع التى تطالعنا فى قصص الخلق فى النصوص الوثنية فى كافة أرجاء الشرق الأدنى القديم. بل إن فكرة الصراع البدائى بين إله سامٍ ووحش بدائى ـ وهى حكاية رمزية عن الصراع بين النظام والفوضى أو الخلق والدمار ـ يمكن إدراكها فى الكتاب المقدس العبرى نفسه حيث يشير أشعياء ـ ضمن غيره من المؤلفين التوراتيين ـ إلى هزيمة لوياثان «الْحَيَّةَ الْمُتَحَوِّيَةَ والتِّنِّينَ الَّذِى فِى الْبَحْرِ» بسيف يهوه الصارم[١٤٥]. وأسطورة الصراع فى التراث الوثنى لا يمكن إدراكها إلا فى ثنايا النص التوراتى، ولكنها محور سفر الرؤيا.

ويؤكد بعض الباحثين على أن مثل هذه الصلات الوثنية لا وجود لها فى الغالب إلا فى خيال الناظر. على أية حال فليس ثمة حاجة لاعتبار أى من النصوص الفرعية الوثنية التى يمكن التعرف عليها فى ثنايا سفر الرؤيا دليلاً على رياء القديس يوحنا. بل إن من دلائل ذكاء يوحنا أن «ترسانته اللغوية» لا تقتصر على المصادر اليهودية. تقول

آديلة كولنز: «إن يوحنا يستعين بهذه الدعاية الملكية ليزعم أن العصر الذهبى الحقيقى سيحل مع حكم يسوع المسيحانى»[١٤٦].

وما إن قرر يوحنا النظر إلى ما وراء المجتمع اليهودى بحثًا عن قراء وسامعين، حتى أدرك أنه بحاجة للاستعانة بمشاهد وقصص ذات معنى لدى الوثنيين الذين كانوا أغرابًا على الكتابات المقدسة اليهودية. وكانت عظات يوحنا تسمو على كل من المصادر اليهودية والوثنية التى يبدو أنه استلهَمها، وطُبعت كلمات سفر الرؤيا وصوره فى الخيال الغربى بصورة عميقة وراسخة بدءًا من اللوحات الكنسية فى أوروبا العصور الوسطى وانتهاءً بالأغانى المصورة الواسعة التداول على قناة إم تى فى. وكان يوحنا يتوقع بالطبع أن كلمات نبوءته ـ والعالم نفسه ـ لن يدوم إلا «زَمَانًا قَلِيلاً»، ومع ذلك فإن قوة بقاء سفر الرؤيا يتبين أنها أعظم إنجازات يوحنا[١٤٧].

يتصور قلة من قراء سفر الرؤيا من المتدينين أن يوحنا يرحل إلى جزيرة پطمس البعيدة والجرداء تحقيقًا لرؤياه؛ فهو يسعى للوحى ويعثر على ما يبحث عنه كغيره ممن عملوا مثله على مر القرون والألفيات. ومع أن النص ليس فيه ما يبرر هذا التفكير، فإن الفكرة تربط يوحنا بطابور طويل من المتصوفة والمجذوبين ممن جاءوا قبله وبعده بمدة طويلة. وكما نزل الوحى على أپوللو فى دلفى، وعلى موسى فوق طور سيناء، وعلى محمد فى غور التلال المحيطة بمكة، يجد يوحنا فى البرية مكانًا مناسبًا لإلقاء نظرة خاطفة على الإله.

يصف يوحنا نفسه تجربته الرؤيوية فى جزيرة پطمس بطريقة قصد بها تذكير قرائه بأنبياء الكتاب المقدس العبرى الكلاسيكيين. فككل من حزقيال وإرمياء ودانيال وغيرهم من النماذج التى اقتدى بها، يكرِّم يوحنا بسلسلة من الوحى من «إِلَهٍ فِى السَّمَاوَاتِ كَاشِفُ الأَسْرَارِ» حسب تعبير دانيال[١٤٨]. وكغيره من الأنبياء ممن يكافحون للاستعانة بمجرد كلمات لوصف ما لا يوصف، يصف يوحنا تجربته كشىء سامٍ وجبار، متعالٍ ومخيف. فيقول: «كُنْتُ فِى الرُّوحِ يَوْمِ الرَّبِّ وَسَمِعْتُ وَرَائِى صَوْتًا عَظِيمًا كَصَوتِ بُوقٍ»[١٤٩]. وحين يستدير ليرى من يتكلم يبصر يوحنا أولى رؤاه الغريبة

العديدة التى تملأ صفحات سفر الرؤيا: «شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ» شخص متدثر ومتمنطق وجهه «كَالشَّمْسِ وَهِيَ تُضِيءُ فِي قُوَّتِهَا» وعيناه «كَلَهِيبِ نَارٍ» ومعه «سَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدَّيْنِ» يخرج من فمه و«فِي يَدِهِ الْيُمْنَى سَبْعَةُ كَوَاكِبَ». ويصيب يوحنا الذهول جراء ما رأى: «فَلَمَّا رَأَيْتُهُ سَقَطْتُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ كَمَيِّتٍ، لكنه وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَيَّ قَائِلاً لِي: لاَ تَخَفْ أَنَا هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ»(١٥٠).

ويكلف يوحنا من قبل زائره السماوى بكتابة رؤاه ونشرها. فيقول له ابن الإنسان: «فَاكْتُبْ مَا رَأَيْتَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا هُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ هَذَا ... وَالَّذِي تَرَاهُ اكْتُبْ فِي كِتَابٍ وَأَرْسِلْ إِلَى السَّبْعِ الْكَنَائِسِ»(١٥١). وهنا أيضًا يضع يوحنا نفسه فى أهم سنن التوحيد وهى كتابة الأسفار. فالبشر فى ذلك الوقت كما هم الآن يصدقون ما هو مكتوب أكثر مما يقال بصوت مسموع، ويلعن يوحنا كل من قد يجد فى نفسه ميلاً للتلاعب بنصه. ويوضح يوحنا أن الأسرار الإلهية الموحاة إليه من عند الرب قضت المشيئة ألا تظل أسرارًا، فالرؤيا موجهة لكل العصور وللعالم بأسره.

يقول آخر الرسل الملائكيين ليوحنا فى ختام سفر الرؤيا: «لاَ تَخْتِمْ عَلَى أَقْوَالِ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ لأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ... وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ يَحْذِفُ اللهُ نَصِيبَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ وَمِنَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَمِنَ الْمَكْتُوبِ فِي هَذَا الْكِتَابِ»(١٥٢).

إذن كان القصد أن تُحفظ كتابات يوحنا وتُنشر وتُتلى بحماس على مر القرون التالية، ويواصل هو دوره كقدوة يحتذيها الرؤيويون جيلاً بعد جيل. وهناك مثالان لما كان له من تأثير على الخيال الدينى، يعود أحدهما إلى العصور الوسطى والآخر إلى تاريخ أحدث، يسمحان لنا بإلقاء نظرة على كتابات الذهنية الرؤيوية ـ ومنها كتاباته هو ـ بوضوح يفوق ما يسجل هو نفسه فى كتاباته.

وُهبت هيلديجارد بينجن (١٠٩٨ ـ ١١٧٩م) الرؤى ـ أو لعلها ابتليت بها ـ أول مرة وهى فى سن الخامسة. وعندما بلغت الثامنة، اضطر والداها لإيداع هيلديجارد الصغيرة فى رعاية رئيسة أحد الأديرة بألمانيا حيث قضت بقية عمرها، إشارة إلى حالة والدين كانا يربيان مراهقة ناسكة. فكانت هيلديجارد تردد الكلمات والعبارات التى تقرأ

فى سفر الرؤيا حين تصف كيف «تسمو بروحها» وتسمع أصواتًا «كالرعد»[١٥٣]، وتقدم لنا رواية كاشفة لتجربة ربما قاسمها يوحنا إياها. تقول هيلديجارد فى كتابها المعروف باسم «Scivias» : «انفتحت السماء ونزل ضوء ساطع ذو لمعان فائق وتخلل عقلى كله وألهب قلبى كله وصدرى كله، فأيقنت على الفور معنى شروح سفر المزامير والإنجيل وسائر الكتب الكاثوليكية فى العهدين القديم والجديد على السواء»[١٥٤].

بعض رؤى هيلديجارد تسكنها مخلوقات تبدو كأنها خرجت تزحف من صفحات سفر الرؤيا. فبينما كانت تصلى بالكنيسة، مثلاً، ترى صورة طيفية لامرأة أمام المذبح؛ فتنظر إليها فى فزع وتدرك أن المرأة تستعد للمخاض. ولكن على خلاف المرأة فى حالة المخاض بسفر الرؤيا ـ حيث المرأة متسربلة بالشمس ووليدها المسيح ـ تضع المرأة فى رؤيا هيلديجارد وحشًا ضاريًا. تقول هيلديجارد: «كانت لها نقط حرشفية مختلفة من السرة إلى الفخذ. ومن فرجها برزت رأس وحشية شديدة السواد، وبها عينان متوهجتان وأذنان كأذنى حمار، وفتحتا أنف وفم كفتحتى أنف وفم أسد، تصر بفم مفتوح لآخره وتشحذ أسنانها الحديدية الرهيبة بطريقة بشعة»[١٥٥].

ليس كل قارئ لسفر الرؤيا يجد ما يجذبه فى لحظات الفزع والرعب فى نص يوحنا. فكان روبرت جريفز شاعر وروائى القرن العشرين، مثلاً، يثير فضوله ما يسميه «رمزية القديس يوحنا»، أى معنى الرقم ٦٦٦ عدد الوحش، ويصف التجربة فى كتابه «الإلهة البيضاء ـ The White Goddess» بأنها تمرين على الرؤيا الوجدية ومعالجة الأعداد فى آن. ويترجم جريفز الرقم ٦٦٦ بالأرقام الرومانية لتقابل D.C.L.X.V.I ويتصور أن سرا تكشف له فجأة كما حدث لهيلديجارد. ويرى الأحرف كاسم مختصر لعبارة لاتينية يترجمها بمعنى «القيصر دوميتيان قتل رسل المسيح بكل خزى»[١٥٦]. ولعلنا كنا نتمنى أن يصف يوحنا رؤاه بوضوح كما فعل جريفز، وقد نحدس أنه رآها بالطريقة نفسها تقريبًا. يقول جريفز فى كتابه نفسه: (رأيت فيما يشبه الرؤيا الأعداد الرومانية تومض على جدار الغرفة التى كنت بها. كنت واعيًا بأن رؤيا يوحنا كانت عند معظم الباحثين التوراتيين إشارة إلى عهد نيرون لا دوميتيان. ومع ذلك قرأتها عيناى «دوميتيان»)[١٥٧].

وبين هيلديجارد وجريفز لدينا طريقتان مختلفتان تمامًا ولكنهما كاشفتان بالقدر نفسه لفهم التجربة الرؤيوية التى حفظها سفر الرؤيا. فتروى هيلديجارد ـ كما فعل يوحنا ـ ما يمكن وصفه بلغة علم الأمراض النفسية بأنه سلسلة من الهلاوس السمعية والبصرية، ومرة أخرى تزعم ـ كما زعم يوحنا ـ بأنها أعطيت القدرة الإلهية لرؤية المعانى الخفية للعالم المعروف والتى حجبت عمن سواها. وهو ما دفع آديلة ياربرو كولنز للإشارة إلى «وجود تشابه ما بين الخيال الإبداعى لمريض الفصام ورؤى سفر الرؤيا»[١٥٨].

ويزعم جريفز أيضًا أن وميض بصيرة يمكن أن يكشف للمرء معانى خفية حجبت عمن سواه. إلا أنه حين يشير إلى الرقم ٦٦٦ باعتباره «رمزية القديس يوحنا» يعزو الفضل ليوحنا لا للرب فى وضع المعانى الخفية فى النص أصلاً. وهذه طريقة أخرى لفهم مؤلف سفر الرؤيا: فيوحنا يمكن أيضًا رؤيته كلاعب ألعاب مرغم يبهجه تزيين نصه بالأحاجى والألغاز والعلامات والرموز بقصد إشراك قرائه وسامعيه وإلهاب خيالهم. بل إن يوحنا يستعين مرارًا بعبارة متكررة: «مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ» كأنه يقول إن علينا أن نخترق تلاعبه بالألفاظ وألعابه الذهنية لإدراك ما يعنى[١٥٩].

ومع ذلك فلا شىء هزلى أو حسابى فى رؤى يوحنا. فمن الواضح أنه رجل منساق أنهكته نيران إيمانه الحقيقى، وعلى اقتناع تام بأن الرب كلفه بمهمة نشر كلمته على العالم أجمع. وهو ما يتضح فى تأملات من يمكن اعتباره أعظم مبشر رؤيوى فى التاريخ بعد يوحنا نفسه وهو راهب الدومينيكان جيرولامو ساڤونارولا الذى أضرم النار فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر. ولا غرو أن كان نص ساڤونارولا الأثير سفر الرؤيا ولا بد أن مواعظه كانت تشبه تلك التى كان يوحنا يلقيها فى مدن آسيا.

قال الراهب المتقد حماسًا فى آخر مواعظه التى ألقاها قبل استشهاده: «كنت أتصور أحيانًا وأنا أهبط منبر الوعظ أنه يستحسن أن أكف عن الكلام وعن الوعظ عن هذه الأشياء، فالأفضل للمرء أن يكف ويترك الأمر برمته للرب. ولكن ما أن أرتقى المنبر مرة أخرى حتى أعجز عن امتلاك نفسى. فترديد كلمات الرب كانت دائمًا عندى نارًا تحرق عظامى وقلبى. كنت لا أطاق. لا يمكننى أن أكف عن الكلام. كنت على نار. كنت أستعر بروح الرب»[١٦٠].

نحن لا ندرى متى أو كيف توفى يوحنا. لكننا نعلم أن بعضًا من أشد قرائه حمية ومنهم ساڤونارولا وديڤيد كورش التهمتهم النار التى أوقدوها بمواعظهم حول سفر الرؤيا. وتذكرنا نهاياتهم بأن سفر الرؤيا ليس ــ ولم يكن القصد منه قط أن يكون ــ سفرًا يبعث على السكينة. بل كان يوحنا يسعى لإضرام النار فى أرواح قرائه وسامعيه، ونجح فيما سعى.

ربما كان يوحنا على اقتناع بأنه كان يسمع صوت الرب، لكن البراعة الفائقة الواضحة فى سفر الرؤيا تميزه كعمل من إبداع البشر، أو «نتاج خيال إبداعى مستمد كخيال الفصامى من تجربة حقيقية فى عالم الواقع» على حد تعبير آديلة ياربرو كولنز[١٦١]. فهو دعائى نابه يلهب آمال قرائه وسامعيه ومخاوفهم بحنكة بالغة، أو مخرج استعراضى ناجح يسعده إرباك جمهوره وإثارة دهشتهم. لكن يوحنا يؤمن فعلاً بأنه صادق، وأن الرب سمح له بأن يرى الحق حين يبوح بما «لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنْ قَرِيبٍ»[١٦٢].

ولا يسعى يوحنا للفوز بالثناء كمؤلف بارع، ولا مجال لاحتواء سفر الرؤيا ورفضه بوصفه عملاً أدبيًا، بل من الواضح أنه يقصد الفوز بمتحولين للمسيحية، ويريد لرسالته أن تصل للعالم بأسره. ولا يقصد أن تخلد رسالته عبر العصور لسبب بسيط، هو أنه مقتنع ويريد أن يقنع جمهوره بأن نهاية العالم وشيكة. إذ يسمع يسوع المسيح وهو يقول فى رؤياه: «هَا أَنَا آتِى سَرِيعًا طُوبَى لِمَنْ يَحْفَظُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ»[١٦٣].

وأكبر المفارقات فى حياة يوحنا وعمله أن الأشياء التى تنبأ بها فى سفر الرؤيا لم تأت لتمر مر الكرام، أو لتمر أصلاً فى هذا المقام. فكان يوحنا نفسه سيُصدم أو ينكسر قلبه إذا علم أننا لا نزال هنا نطالع ما كتب قبل ألفى سنة؛ لذا فإن سفر الرؤيا والتراث الرؤيوى فى اليهودية والمسيحية عرف بحق بأنه «تاريخ وهم»[١٦٤]. أى أن سفر الرؤيا بعبارة أخرى تاريخ نهاية العالم وتاريخ عالم أبى أن ينتهى.